سلسلة تاريخ الجزيرة العربية 4

المجتمع القرمطي في شرق الجزيرة العربية

(السعودية)





إعداد لجنة الدراسات والبحوث بدار فراديس


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

المجتمع القرمطي في شرق الجزيرة العربية (السعودية)

- المجتمع القرمطي في شرق الجزيرة العربية (دراسات تاريخية)
- إعداد لجنة الدراسات والبحوث بدار فراديس للنشر والتوزيع
- جميع الحقوق محفوظة للناشر
- الطبعة الأولى : 2013
- جميع الحقوق محفوظة
- فراديس للنشر والتوزيع
- بيروت – لبنان
- تلفاكس: 009611-361045
- e-mail:darfaradees@gmail.com
- www.darfaradees.com

المجتمع القرمطي في شرق الجزيرة العربية

إعداد لجنة الدراسات والبحوث بدار فراديس



تقديم

إن كتابة التاريخ الإنساني ليست عملية سهلة وبسيطة كما يتصورها الإنسان العادي، بل هي كتابة متشظية ومتعددة الجوانب، كتابة محفوفة بالمخاطر والمزالق أحيانًا، إذ أن كاتب التاريخ لابد وأن يتميز بصفات وخصائص الكتابة التاريخية سواء أكان مؤرخًا يسجل الأحداث والوقائع، أم يحللها ويفككها ويفسرها، ولكن قد يحدث لدى هذا المؤرخ أو ذاك بعض التلميعات أو النقد أو التجاهل و طمس بعض الحقائق وفقًا للبعد العاطفي أو التوجه الإيديولوجي أو النزعات المختلفة قد تطرأ على هذه الكتابة أو تلك، كما أن حالة المجتمع والقوة المسيطرة أو المؤسسة التاريخية في فترة من الفترات هي القادرة على حركة المجتمع تظل هي المتحكمة في طبيعة هذه الكتابة أو هذا البقاء أو هذا الحذف، لذلك قد يجد القارئ تهريبًا للتاريخ من خلال بعض الجمل المتناثرة هنا أو هناك في بعض أمهات الكتب والمصادر، والحصيف الذي يسعى جاهدًا لجمع هذه النتوءات والتعرجات التي لصقت بهذه الحركة أو تلك، أو بهذا الإنسان أو ذلك من أجل دراستها الدراسة التحليلية بدلا من نسجها تاريخًا كما هي.

وحين فكرنا نحن دار فراديس للنشر والتوزيع في نشر ما يرتبط بتاريخ حركة القرامطة ضمن سلسلة تاريخ الجزيرة العربية فنحن على علم ما كان يدور حولها من جعلها حركة فاضحة لمبادئ لا تمت للحياة والواقع بصلة، أو جعلها حركة هادمة للقوانين والتشريعات التي كانت قد تسيدت في مجتمع الجزيرة العربية، هذا ما كان يقوم به معارضو الحركة قديمًا وحديثًا، وبغض النظر في الكيفية التي كان ينظر لها إيجابًا أو سلبًا فهي حركة ترتقي إلى الحياة الديمقراطية آنذاك وبالمفهوم الحديث في عصرنا هذا، ونحن هنا نحاول نشر هذه الدراسة التي كانت في الأصل حلقات نشرت في مجلة الجزيرة الجديدة بداية سبعينيات القرن العشرين، عن هذه الحركة القرمطية في شبة الجزيرة العربية، وامتداد تاريخها الذي تمحور في النظر إلى مجتمع شبه الجزيرة العربية بين حالة الاستقرار والتحضر في ظلال الوضع الاجتماعي آنذاك، وحالة المستوى الاقتصادي، مع الوقوف على نشوء الحركة القرمطية في العراق، وتطورها، ومسيرتها في شبه الجزيرة العربية، بالإضافة إلى واقع تلك الشخصيات التي أدت أدوارًا مهمة في تطوير الحركة وتنمية فكرها الاجتماعي والسياسي والنضالي، على أمل أن يجد القارئ تلك العلاقات التي قد يربطها بين تلك الحركة وبقية حركات التحرر في عالمنا العربي من جهة والعالم من جهة أخرى، مع أهمية الاستفادة من تلك التشريعات والقوانين التي كانت تؤمن بها الحركة من أجل بناء مجتمع ديمقراطي يقوم على العدالة الاجتماعية في المجتمع، ويحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهو الشيء الذي سيقف عليه القارئ في شكل مباشر أو غير مباشر من خلال فصول هذه الدراسة.

الناشر

المقدمة

إن الفكر الرسمي لا يسعى دائماً وأبداً إلى تحسين مساوئ مؤسسات النظام وإيجاد التبريرات لها فحسب، بل يسعى أيضاً إلى تشويه معالم اية تجربة ثورية معبرة عن الطموحات المشروعة للطبقات المضطهدة وهذا ما نجده فعلاً لدى المؤرخين العرب الأوائل بل والمحدثين في موقفهم تجاه كل الانتفاضات والثورات الشعبية الكبرى التي شهدها التاريخ العربي – الإسلامي في العصر الوسيط ضد القهر الطبقي والاستبداد السياسي، "فالبلاذري يرى في التاريخ العربي الإسلامي تاريخ النبلاء وأشراف العرب، والمسعودي يصنف التاريخ ذاك على أساس من تسلسل الخلفاء والقواد، أما الطبري فإنه يرى في التاريخ العام تاريخاً للأديان. وابن مسكويه انطلق بدوره في فهمه وتحليله للتاريخ على أساس أخلاقي"[1].

وعلى الرغم مما تعج به بطون كتب هؤلاء – ومن اتبع نهجهم – المكدسة بأطنان من الكذب والتلفيق تجاه تاريخ الحركة الثورية في العصر

---

[1] الدكتور طيب تيزيني "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"، ص133.

الوسيط، فإن نور التجربة القرمطية الثورية يظل مشعاً خارقاً هذه الأكوام الصفراء ليدحض بالحقيقة الناصعة كل محاولات الافتراء والتشويه التي تعمدها هؤلاء المؤرخين.

فالمجتمع القرمطي الذي قام في شرق الجزيرة العربية، لا تبرز عظمته في نشر وغرس الأفكار الثورية فحسب، بل تبرز أكثر في تأسيس دولة متقدمة منهجية مستنيرة بتلك الأفكار الثورية على امتداد فترة تزيد على مائة وثمانين سنة، محاطة بأنظمة إقطاعية مغرقة في تخلفها وعدائها لهذا النظام الثوري الجديد ومما يزيد الإعجاب أنه كلما تفحصنا المصادر التاريخية لهذه التجربة طيلة فترة استمرارها من عام 283هـ- 467 هـ فإن التاريخ لا يطالعنا بأي تمردات شعبية تجاه السلطة القرمطية، وإلا فإن تلك فرصة ذهبية لأولئك المؤرخين المفترين للايغال في تشويهاتهم لتلك التجربة، كما أن المؤرخين لم يطالعونا بأي صراع حاد داخل "المجلس العقداني" الشعبي الذي كان يسير السلطة، اللهم إلا صراع واحد حصل داخل الأسرة "أبوسعيد" بين ابن أبي طاهر وبن حسن القرمطي، وقد حسم هذا الصراع لصالح الثورة. وهذا ما يدلل فعلاً على التطبيقات السليمة للنظام القرمطي تجاه كافة المسائل الأساسية للشعب، ومما تقدم يظهر مدى التحام السلطة بالجماهير عبر التطبيقات الاجتماعية والسياسية الجذرية، هذا الالتحام الذي عبر عن نفسه بالتفاف الجماهير حول السلطة القرمطية مولداً حالة عالية من الاندفاع للذود عن النظام القرمطي من قبل الجماهير ضد كل الغزوات الشرسة التي قامت بها جيوش الدولة العباسية الضخمة حتى أن الخليفة المقتدر قال: "لعنة الله.. نيفا وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة جندي"[1]، (يعني أمام الجيش القرمطي).

---

[1] ثابت بن سنان، اخبار القرامطة، ص50.

ولقد زار بلاد البحرين في عهد القرامطة، كتاب كثيرون ممن هم على نقيض مع هذه التجربة. كابن حوقل، والمقدسي، وناصر خسرو، ولا يمثل شيئاً مما ذكروه مساساً بهذه التجربة القرمطية، بل على العكس فناصر خسرو زودنا بوثيقة تاريخية هامة، تبين مدى التطبيقات الثورية في المجتمع القرمطي[1].

وسنحاول فيما يلي تقديم صورة مختصرة عن المجتمع القرمطي فقط- مبتعدين عن حروبهم الكثيرة وما تعرضوا له من اتهامات بأنهم تابعين للدولة الفاطمية كما صور ذلك عارف تامر[2] وغيره- وعن الأسس الاجتماعية التي أشادوا بها مجتمعهم، الجديد، كطريقتهم في إلغاء الإقطاع وتوزيع الأراضي[3] على الفلاحين وألغوا الرق[4] وشجعوا الصناع[5] وسيطرت الدولة على التجارة الخارجية[6] ومساواة الرجل بالمرأة، والشكل الجمهوري لنظامهم السياسي[7]، وكيف أن القرامطة استطاعوا فعلاً التأثير على البدو الذين يعيشون داخل إطار الدولة القرمطية بجعلهم يتفاعلون مع التطبيقات الجديدة مثل تحول ملكية المراعي والمواشي إلى يد الدولة[8]، ذلك البدوي الذي يبالغ كارل بروكلمان في فرديته[9].

---

(1) ناصر خسرو "سفرنامه".

(2) عارف تامر "القرامطة".

(3) د. عبد العزيز الدوري "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، ص74.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه، ص75.

(6) المصدر نفسه.

(7) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفخرية في الإسلام"، ص191.

(8) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص961.

(9) كارل بروكلمان "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ص18.

ولقد مثلت الدولة القرمطية- طيلة فترة وجودها- نبراساً تتطلع إليه الجماهير المسحوقة في كل أرجاء الدولة العباسية بفعل ما "بلغت من الرقي في اقتصادياتها وأخلاقها وآدابها شأوا بعيداً جعل أكثر البلاد الإسلامية تحسدها عليه، وتتمنى لو يتاح لها أن تبلغ هذا الرقي الذي لم تبلغه جمهورية القرامطة إلا بنظامها الجديد الذي أدخلوه على حياتهم لأول مرة في تاريخ الإسلام"[1].

إن مصدر اهتمام "الجزيرة الجديدة" بنشر هذه المحاولة لدراسة التجربة القرمطية في شرق الجزيرة العربية، نابع بالأساس من الأهمية الاجتماعية والسياسية التي ارتدتها هذه التجربة على صعيد تراث التجربة الثورية التاريخية على العموم. كذلك تمثل من جانب ثان جزءاً هاماً من التراث الثوري لشعبنا في العصر الوسيط.

إن الدولة القرمطية التي نشأت قبل أكثر من إحدى عشر قرناً وانغرست وسط منطقة تسودها الأنظمة الإقطاعية وقوى البدو، قد قدمت على امتداد حوالي قرنين من الزمن، نموذجاً اجتماعياً وسياسياً فريداً، امتاز بروح الأصالة والجذرية، تجدر الاستفاضة في دراسته من قبل الثوريين، وأنه لمغزى عظيم الدلالة، أن تبقى "القرمطة" اسماً يقض مضاجع المستبدين في بلدنا حتى اليوم. على الرغم من التجربة والفكر القرمطيين. قد أسدل التاريخ عليهما ستار النسيان.

---

[1] بندلي جوزي، المصدر نفسه، ص191.

الفصل الأول

الوضع الاجتماعي في المنطقة

الوضع الاجتماعي في بلاد البحرين في العصر الوسيط:

اهتم مؤرخو العرب الأوائل - اليعقوبي، البلاذري، الطبرى، ومن أعقبهم- بتركيز جل معلوماتهم وأخبارهم على منطقة واحدة من مناطق الجزيرة العربية ألا وهي منطقة التجار ونعني بالذات مكة والمدينة وإبرازهما على أنهما المستوطنتين الوحيدتين في جزيرة العرب، اللتين لم ترق إلى حياتهما الاجتماعية والاقتصادية أية منطقة أخرى من مناطق الجزيرة العربية عند فجر الإسلام. وقد انطبعت وسادت هذه الصورة لدى المؤرخين المتأخرين، مما قلل من اهتمام هؤلاء المؤرخين للكشف عن الجوانب الحياتية في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية. فجاءت تداوينهم وأخبارهم عن بعض المناطق مشوشة ومتفرقة، ونادرة.

ونحن هنا لسنا بصدد دراسة المجتمع المكي، ولا التقليل من مركزه التجاري الرئيسي في الاستيراد والتوزيع، ولا مستوى النمو الذي بلغته القوى الاجتماعية في تلك الحقبة من التاريخ.

وإنما نريد القول بأن السبب الرئيسي والمباشر في شهرة مكة والمدينة وحدهما دون غيرهما والتي تجاوزت حد المعقول - عند المؤرخين- نابع من كون هاتان المدينتان مركزاً دينياً في الجاهلية وموطن الإسلام وبلد الرسول. من هنا اكتسبتا شهرتهما العالية- تلك الشهرة التي أصبحت في حكم اليقين عند المثقف والإنسان العادي، ومفادها بأن ليس "هنالك مستوطنات في الجزيرة العربية، تضاهي كلاً من مكة والمدينة في المال والتجارة.

ونحاول هنا التطرق إلى أبرز المستوطنات التي شهدت ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً- بعد سقوط الدولة الحميرية في اليمن على يد الأحباش ثم خضوعها للفرس- ربما أفاقت به كلاً من مكة والمدينة في تلك الحقبة من التاريخ. ألا وهي بلاد البحرين (البحرين الحالية، القطيف والاحساء الحالية) ولكن بعد هذه المنطقة عن الإسلام في بداية ظهوره، من جهة، وما امتازت به عن غيرها- من المناطق- بشدة الصراع الطبقي والأفكار الثورية المعبرة عن نفسها في بعض التمردات والانتفاضات ضد الدولة المركزية، من جهة ثانية، هو السبب الرئيسي الذي قلل من اهتمام المؤرخين الأوائل بنقل تفاصيل الحياة في تلك المنطقة. يقول الدكتور جواد علي: "ولكننا لو استعرضنا ما ذكره أهل الأخبار أنفسهم عن هجر وعن البحرين وبقية العربية الشرقية، فإنه يرينا على قلته أن مدن وقرى هذا الجزء من جزيرة العرب، لم تكن أقل درجة في المال - التجارة والإنتاج من مكة أو المدينة، إن لم تكن قد تفوقت عليهما بالفعل، بدليل ما جاء في أخبارهم عن مقدار الزكاة والصدقات التي أرسلت عمال الرسول والخلفاء إلى المدينة، فإنها تدل على وجود تجارة وأعمال في هذه الأرضين ربما كانت قد فاقت أرباح وأعمال أهل مكة"[1].

تؤكد بعض الأخبار المتفرقة عن هذه المنطقة، لا على ازدهار تجاري وزراعي فحسب، بل تؤكد على مدى شدة الصراع الطبقي الذي تمخض عن أبرز ثورتين شعبيتين عرفهما تاريخ المنطقة في العصر الوسيط، ألا وهي ثورة محمد بن علي 249-254هـ[2] وعند فشله توجه إلى لبصرة

---

[1] د. جواد علي "العرب قبل الإسلام"، الجزء السابع، ص21-22.

[2] احمد علبي " ثورة الزنج"، ص 32.

وقاد ثورته المشهورة في التاريخ ثورة الزنج في البصرة سنة 255-370هـ[1] ثم ثورة القرامطة وقيام المجتمع القرمطي في هذه المنطقة.

من هنا يتطلب الأمر معرفة الخلفية التاريخية لهذه المنطقة في ذلك العصر وما هي الأسس الاجتماعية التي قامت عليها حياة ذلك المجتمع.

1- عرفت هذه المنطقة الاستقرار والتحضر قبل مكة والمدينة بفعل خصوبة الأرض ووفرة المياه إذ اعتبرت من أخصب مناطق جزيرة العرب[2]، ولقد اشتهرت بزراعة النخيل فاحتلت الدرجة الأولى في الجزيرة العربية- ولا زالت تحتل هذه الدرجة إلى الآن- حتى ضرب بها المثل المشهور في الجاهلية (كجالب التمر إلى هجر)[3] واشتهرت أيضاً بزراعة الرز والخضروات... الخ.

2- بفعل موقعها الجغرافي المطل على الخليج العربي والذي يربط هذه المنطقة بسواحل المحيط الهندي، وكذلك كونها مركزاً لتوزيع البضائع المكية الآتية من جدة إلى القطيف في إقليم البحرين حيث تنقل في قوارب مع اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج العربي إلى مصب الفرات"[4].

3- تعبر بلاد البحرين من أسواق العرب المشهورة التي يجلب إليهما الرقيق الأسود من الهند[5]، لاستغلاله في الزراعة والبعض الآخر يصدر إلى أجزاء أخرى من جزيرة العرب.

---

(1) د. فيصل السامر "ثورة الزنج"، ص51.

(2) حمد الجاسر، مقدمة لكتاب الأنصاري "تاريخ الإحساء القدم".

(3) د. جواد علي "العرب قبل الإسلام"، الجزء السابع، ص69.

(4) حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي"، الجزء الأول، ص62.

(5) د. جواد علي "تاريخ العرب قبل الإسلام"، الجزء السابع، ص459.

4- امتازت بأسواقها المشهورة قبل الإسلام وعند ظهوره كسوق هجر وسوق مشقر، وسوق دارين[1] وهي من ضمن أسواق العرب العشرة المشهورة قبل الإسلام. وهذا دليل على مستوى الازدهار التجاري والزراعي الذي جعل هذه المنطقة تتفرد لوحدها بثلاث أسواق رئيسية تجلب العرب والأجانب "وطالما أعجبت أرض هجر. وموضع المشقر فيها بعض هؤلاء الأعراب فيبقون فيها ولا يرتحلون عنها. فمن هنالك صارت بهجر طوائف من كل حي من العرب وغيرهم"[2].

هـ- اشتهر رجال هذه المنطقة بتعاطي التجارة مع مكة والحيرة في العراق. وقد اعتبر "الحطم بن هند البكري"[3] بمثابة أبي سفيان في مكة، فكان هو الذي يقود قوافل التجارة من الاحساء إلى مكة لبيع منتوجات هذه المنطقة، وما تستورده أيضاً من الهند. وكان عظيم التجارة[4].

6- امتازت هذه المنطقة عن بقية مناطق الجزيرة العربية بتواجد تيارات فكرية- دينية- عديدة، كالمسيحية، واليهودية، والزرادشتية، كانت هذه الأخيرة سائدة في فارس وفي شرقي بلاد العرب وخاصة في جهة البحرين[5]. كما أن معظم هذه الفرق كانت تتعاطى التجارة داخل البلد وخارجها.

7- تتضح الصورة أكثر عن مستوى الرقي الاقتصادي وعن كثافة السكان الهائلة في تلك الحقبة من التاريخ من خلال النظر إلى مقدار الخراج الذي ضربه النبي محمد- ويقال أنه أول ما ضرب الخراج في

---

[1] سعيد الأفغاني "أسواق العرب"، ص211، 214.

[2] د. جواد علي "تاريخ العرب قبل الإسلام"، الجزء السادس، ص.. .

[3] د. جواد علي، المصدر نفسه، ص100.

[4] المصدر نفسه، ص100.

[5] حسن إبراهيم حسن "تاريخ الإسلام السياسي والثقافي"، الجزء الأول، ص72.

الإسلام ضرب على هذه المنطقة[1] وحجم الأموال الهائلة التي جلبها أبو العلاء الحضرمي سنة 7 هجري[2]- وقدرها مائة وخمسون ألف دينار[3] فلم يصل إلى النبي محمد مبلغ كهذا لا قبل ولا بعد[4]، خاصة إذا عرفنا أن الجزية لا تؤخذ إلا على كل محتلم ذكر أو أنثى[5] وقدرها دينار، وفي عهد أبي بكر وصلت إليه أموال هائلة من هذه المنطقة[6] ولما قدم أبو هريرة من هذه المنطقة إلى المدينة في عهد عمر بن الخطاب. كان يحمل معه نصف مليون درهم[7] على الرغم من أن أبو هريرة لم يمكث في هذه المنطقة أكثر من سنة ونصف فصادرها عمر وقصته مع أبي هريرة معروفة في التاريخ.

وبعد أن أوضحنا على نحو سريع الخلفية التاريخية لبلاد البحرين قبيل الإسلام وعند ظهوره من خلال النقاط السبع السالفة الذكر، لا بد من الانتقال للإحاطة بوضع الخلافة العباسية وكذلك الوضع الاجتماعي في بلاد البحرين في القرن الثالث الهجري. وبالتالي لنتمكن من خلال ذلك من استكشاف الظروف التي انبتت الحركة القرمطية بشكل عام وفي بلاد البحرين بشكل خاص.

---

(1) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم "الخراج"، ص154.

(2) ابن سلام "الأموال"، ص100.

(3) محمد عبد القادر الأنصاري "تاريخ الاحساء القديم"، ص65 ومحمد سعيد مسلم "ساحل الذهب الأسود، ص104.

(4) المصدر السابق.

(5) ابن سلام، ص27، وأبو يوسف يعقوب، ص154

(6) أبو يوسف يعقوب "الخراج"، ص50.

(7) المصدر السابق، ص53، ومحمد سعيد مسلم "ساحل الذهب الأسود"، ص109.

وضع الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري:

منذ بداية القرن الثالث الهجري بدأ الانحلال يدب في جسم الدولة العباسية وأخذت تفقد هذه الدولة تدريجياً سيطرتها على أجزاء كثيرة من امبراطوريتها الواسعة. ففي هذا القرن حدثت تطورات هامة على عدة أصعدة.

فعلى صعيد الوضع الاقتصادي: تميز هذا القرن من عمر الدولة العباسية "بانتقال المجتمع العباسي من الزراعة الضيقة، إلى الزراعة الواسعة والتجارة الرابحة، أدى إلى قيام طبقة من أصحاب الثروات العريضة والراضي الواسعة بجانب طبقة كبيرة جداً من الفقراء المعدمين[1].

كما تميز هذا التطور الاقتصادي "بتعميق التقسيم الاجتماعي للعمل، وبانفصال الحرفة الكلي عن الزراعة وبتوسيع الإنتاج السلعي والاقتصادي النقدي على حساب علاقات الاقتصاد الطبيعي"[2].

وهكذا نلحظ أن تفكك الإقطاعية المركزية، كان نتيجة لتطور القوى المنتجة التي أصبحت – هذه الإقطاعية المركزية عبئاً عليها. بل وعبئاً على الاقطاعيات المحلية أيضاً. ذلك أن الخلافة العباسية كانت تكتفي فقط بجبي الضرائب الباهظة دون أن تكون قادرة – بطبيعة الحال – على

---

(1) د. فيصل السامر "ثورة الزنج"، ص26.

(2) د. نايف بللوز "بعض الملامح الحضارية للإقطاعية الشرقية"، دراسات عربية، تشرين الثاني 1972.

استيعاب الظروف الجديدة. على تلبية حاجات القوى الاجتماعية الجديدة بل حاجات الولايات المتحدة.

أما على صعيد الوضع السياسي:

فإن السلطة المركزية للخلافة، لم تفقد الأراضي الواسعة من إمبراطوريتها فحسب، بل إنها فقدت أيضاً هيبتها الزمنية، والدنيوية حتى في عقر دارها. وذلك بعد موت آخر الخلفاء الأقوياء من بني العباس ألا وهو "المعتصم" وتحكم قواده الأتراك بزمام الأمر، ومجيء خلفاء ضعفاء انغمسوا في ملذاتهم ولياليهم الحمراء، معتمدين فقط على جلب الضرائب الباهظة، ومصادرة الأموال والثروات من وزرائهم تارة ومن التجار تارة أخرى[1]. وبالمقابل فإن صراعاً رهيباً حول السلطة أخذ يدور في وسط العائلة العباسية. هذا الصراع الذي أدى فيما أدى إلى مقتل أربعة خلفاء في خلال تسع سنوات من سنة 247-256هـ[2]، على يد الضباط الأتراك. وفي ظل هذا الوضع أخذت الحركات الثورية تنشط بفعالية ضد الخلافة، مستفيدة من تدهور النظام المركزي وفقدان الخلافة هيبتها. وها هو الشاعر الثائر "دعبل: يصف لنا بتهكم شعبي حالة الخلافة في القرن الثالث الهجري.

خليفة مات لم يحزن عليه أحد

وآخر قام، لم يفرح به أحـــد

فمر ذاك ومـــر الشؤم يتبعه

وقام ذا، فقام النحس والنكد[3]

---

(1) راجع د. الدوري في كتابه "تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع هجري".

(2) أحمد علبي "ثورة الزنج"، ص60.

(3) أحمد علبي "ثورة الزنج"، ص60.

ولقد تمثلت الحركة الثورية المعارضة للخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري، في عدد كبير من التنظيمات السياسية، والانتفاضات الجماهيرية المسلحة، نذكر منها، حركة العيارين والشطار[1] الشعبية واليت كانت تضم الحرفيين والعامة، والتي انتفضت في بغداد ضد الخلافة ثم ثورة "بابك" في فارس التي استمرت نحو اثنتين وعشرين سنة[2]. والتي لم تكن موجهة ضد الخلافة المركزية فقط بل والإقطاع المحلي، إذ كانت تهدف إلى أخذ أراضي الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين[3] ثم ثورة الزنج التي جذبت جماهير عبيد البصرة المستثمرين والمضطهدين. ثم الحركة الإسماعيلية بفروعها المتعددة. وأخيراً ثورة القرامطة في العراق والبحرين.

أما على الصعيد الوضع الاجتماعي:

فإن التباين الاجتماعي في سلم الهرم الطبقي قد أخذت تزداد هوته واتساعه، بفعل التطور الاقتصادي، وازدادت بالمقابل مأساة الفلاحين، التي أخذت الضرائب الباهظة تثقل كاهلهم، تلك الضرائب التي توفر للخلافة المركزية ملذاتها ومجونها وقد تمثل استغلال الإقطاع المركزي والمحلي للفلاحين في "أشكال أساسية ثلاثة: ريع العمل أو السخرة والريع العيني ثم الريع النقدي"[4]، كما أن الحرفيين والصناع والتجار كانوا هم الآخرين ينوءون بحمل ضرائب السلطة المركزية.

---

[1] الدكتور الدوري "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، ص72.

[2] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكري في الإسلام"، ص78.

[3] المصدر نفسه، ص92.

[4] د. نايف بللوز "بعض الملامح الحضارية للإقطاعية الشرقة"، دراسات عربية، تشرين الثاني 1972.

هذه هي وضعية الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري. ذلك القرن الذي شهد بالمقابل حركة فكرية واسعة، ومتطورة، لم ترم بها العصور العباسية التي سبقته. وهذه الحركة التي لم تكن بطبيعة الحال معزولة عن الطموحات الاجتماعية الجديدة، قد تمثلت بصورة بارزة في فرق المعتزلة، وبعض الصوفية والفكر الفلسفي وتطور العلوم التطبيقية.

الوضع لاجتماعي في بلاد البحرين في القرن الثالث الهجري:

إن التطورات والتمردات العنيفة التي شهدتها هذه المنطقة ضد الخلافة الأموية ثم العباسية، تدل على تطور التناقضات الطبقية وشدة الصراع الطبقي. فإذا كانت هذه المنطقة أولى المناطق في الإسلام التي ضرب عليها الخراج فإنها بالمقابل أولى المناطق التي انتفضت ضد الخراج عام 37 هـ[1]، أيام خلافة عثمان بن عفان ثم تتابعت الثورات والانتفاضات أيام الدولة الأموية كثورة "نجدت" سنة 67هـ[2] وثورة "مسعود بن العبدي" سنة 89هـ-105هـ[3]. وكذلك في أيام الدولة العباسية كثروة "سليمان بن الحكيم العبدي" سنة 151هـ[4]. ولم يأت القرن الثالث الهجري إلا وكانت الأوضاع الاجتماعية تسير من سيئ إلى أسوأ. وتنذر بانفجار الوضع الاجتماعي. بفعل ما يعانيه الفلاحون والحرفيون والتجار من الضرائب الباهظة فكان الفلاحون واقعين تحت

---

[1] يوليوس ولهوزن "تاريخ الدولة العربية"، ص94.

[2] محمد سعيد المسلم "ساحل الذهب الأسود"، ص112.

[3] المصدر نفسه، ص113.

[4] المصدر نفسه، ص114.

استثمار مزدوج "استثمار الإقطاعية المحلية واستثمار الإقطاعية المركزية"[1]، ولقد أرخ لنا "قدامة بن جعفر الكاتب" سنة 237هـ[2]، أن بلاد البحرين تدفع سنوياً إلى الخزانة المركزية مبلغ قدره (510.000 دينار) هذا المبلغ الضخم – بالمقارنة مع حجم المنطقة وسكانها – يعتبر مؤشر كاف للدلالة ليس فقط على حدة الاستثمار الطبقي المركزي الواقع على عاتق جماهير الفلاحين والحرفيين، بل وللدلالة على وجود طبقة إقطاعية محلية قوية، وللدلالة أخيراً على غزارة الإنتاج الزراعي.

هذه الوضعية الاجتماعية لبلاد البحرين، قد وجهت أنظار علي بن محمد إلى هناك والدعوة إلى الثورة، وهو السبب نفسه في توجه أنظار قرامطة العراق إلى خلق نواة ثورية هناك أصبحت فيما بعد من أهم مراكز الحركة القرمطية على الإطلاق[3].

ثورة علي بن محمد في بلاد البحرين:

نالت ثورة الزنج في البصرة سنة 255– 270هـ، والتي قادها سبارتكوس العرب علي بن محمد – اهتماماً كبيراً من لدن المؤرخين باعتبارها أول انفجار طبقي كبير يهز مضاجع الدولة العباسية في القرن الثالث بعد ثورة "بابك" في فارس، ويؤكد جميع هؤلاء المؤرخين أن ثورة الزنج دفعت بالحالة الثورية إلى الأمام، وأثرت تأثيراً بالغاً في الوضع الاجتماعي والسياسي. وأسرعت في تمهيد الطريق أمام بروز الحركة القرمطية في سواد العراق. كما لا يفوتنا أن نشير إلى أن ثورة علي بن محمد

---

[1] الدكتور نايف بللوز، دراسات عربية، تشرين الثاني 1972.

[2] قدامة بن جعفر الكاتب "الخراج والصنعة"، ص239.

[3] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام"، ص165.

في بلاد البحرين سنة 249-254 هـ التي سبقت مجيئه إلى البصرة، قد هيأت المناخ الجماهيري للثورة القرمطية فيما بعد.

جاء علي بن محمد من سامراء في العراق إلى بلاد البحرين سنة 249هـ[1]. وقد كان مطلعاً عن كثب على فساد السلطة ولهو الخلفاء. فأختار المنطقة الملائمة لنشر أفكاره التحررية بين سكانها، فاتجهت أنظاره إلى بلاد البحرين، تلك البلاد التي عرفت بعدائها المستحكم للسلطة العباسية. ويقول الدكتور السامر "وقد كان علي على صواب في رحيله إلى هذه المنطقة لأنه لم يلبث أن كسب أعواناً مخلصين من أهل البحرين ظلوا إلى جانبه حتى نهاية ثورته، ومما هو جدير بالملاحظة أن هؤلاء الأعوان كانوا جميعاً من الطبقة العامة وأصحاب الحرف والموالين[2] فالقاعدة الاجتماعية التي اعتمدها في بث أفكاره الثورية هي الطبقات الشعبية وأن نجاحه في المدن يدل على استيعابه مصالح الطبقات المسحوقة، وعندما أصبحت لعلي بن محمد قاعدة واسعة من جماهير المدن اتجه إلى البادية لنشر دعوته، ولكن فشله في كسب البادية المحيطة بالمنطقة إلى جانبه، قد أدى إلى رحيله عن بلاد البحرين[3] إلى البصرة عام 254هـ وقيامه بثورته المشهورة في التاريخ بثورة الزنج 255-270هـ. ومما هو جدير بالذكر أن أشهر قواده الذين قاتلوا معه في البصرة هم من بلاد البحرين كقائد جيشه سليمان بن جامع، ويحيى بن محمد البحراني، ومحمد بن مسلم وهؤلاء جميعاً من الطبقة العامة. وقد ظل أنصاره في بلاد البحرين يتابعون

---

[1] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع.

[2] د. فيصل السامر "ثورة الزنج"، ص56.

[3] المصدر نفسه.

تطورات ثورته في البصرة حتى مقتله. كما أن معظم جنوده الذين هربوا من قبضة الجيش العباسي قد التحقوا بأبي سعيد الجنابي – مؤسس الدولة القرمطية في بلاد البحرين – أن ذلك ليدل بوضوح على الترابط الوثيق بين الثورتين والتعاطف بين جماهيرهما.

ظهور الحركة القرمطية في العراق:

من الضروري إلقاء نظرة ولو بشكل سريع على نشوء الحركة القرمطية في العراق ودورها الكبير في قيام الحركة القرمطية في بلاد البحرين.

ظهرت الدعوة القرمطية في بداية الأمر في سواد العراق وبالتحديد في مدينة "الكوفة" سنة 261 هـ[1]، وقبل عام 264هـ[2]، على أثر اللقاء الذي تم بين الحسن الأهوازي الداعية الإسماعيلي القادم من "السلمية" في سوريا وبين حمدان بن الأشعث الملقب بالقرمط، لتكون الركيزة الأساسية للدعوة الإسماعيلية في العراق. ويكاد يتفق جميع المؤرخين على أن الحركة القرمطية تنسب إلى حمدان بن الأشعث – الملقب بالقرمط – إذن فالحركة القرمطية فرع من الحركة الإسماعيلية ولكن الفرع الأكثر ثورية، وسرعان ما انتهت الحركة القرمطية في العراق والبحرين إلى موقف المواجهة ضد الحركة الإسماعيلية في سوريا ثم دولتها – الفاطمية – في مصر على اثر

---

(1) د. عبد العزيز الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص158.

(2) عبد الفتاح العليان "قرامطة العراق"، ص35.

انحرافها عن الخط الثوري وتآمرهما على الحركة القرمطية التي تمثل ذلك الخط، ذلك التآمر الذي كان أحد مظاهره قتل "عبدان" – العقل المفكر للحركة القرمطية - واختفاء حمدان – مؤسس الحركة - على يد دعاة الإسماعيلية. كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة في العراق وغيرها من المناطق تساعد على انتشار مثل هذه الحركة الثورية، خاصة أن الحركة القرمطية ولدت في خضم الصراع الدائر بين الخلافة العباسية وبين ثورة الزنج. وما عبرت عنه الأخيرة من رفض تام للظلم الاجتماعي من جهة وما حققته في سنواتها الأولى من انتصارات عسكرية على الجيش العباسي من جهة ثانية، مما شكل مناخاً ملائماً لانتشار الدعوة القرمطية في سواد العراق بين صفوف الفلاحين والحرفيين بالدرجة الأولى، وبفعل ما أبرزه قادة القرامطة في العراق وبالأخص حمدان قرمط، من تفاني كبير في بناء وترسيخ الحركة القرمطية ويصفه كثير من المؤرخين بأنه داهية، خصب القريحة أظهر حماساً عظيماً للدعوة[1] ويساعده في ذلك صهره عبدان – العقل المفكر للحركة وصاحب الكتب المصنفة[2] ولقد حققت الحركة القرمطية نجاحاً كبيراً في صفوف الطبقة العاملة في العراق بفعل الظروف الاجتماعية والسياسية السيئة. وأصبح لها فروع في مناطق عديدة أهمها واشهرها بلاد البحرين كما وأن قرامطة العراق انشأوا مجتمعهم (الاشتراكي) الصغير بين أعضاء الحركة نفسها. وذلك بفرض "نظام الألفة الذي يقتضي بنزول الأعضاء عما يملكونه ليكون

---

[1] د. الدوري، المصدر السابق، ص160.

[2] ابن النديم "الفهرست"، ج1، ص189.

ملكاً عاماً للجماعة"[1]. ولم تمض غير فترة قصيرة على مقتل صاحب ثورة الزنج إلا وقرامطة العراق أعلنوا ثورتهم المسلحة الأولى في مدينة الكوفة سنة 278هـ[2].

نشوء الدولة القرمطية في بلاد البحرين:

في أوائل سنة 274هـ استدعى حمدان قرمط، أبا سعيد الجنابي، من مدينة جنابة في فارس، بعد أن انكشف نشاطه الثوري هنالك من قبل السلطة[3]، ولم يكد يصل أبا سعيد الجنابي إلى مكان الاجتماع في مكان يسمى كلواذي[4] قرب بغداد طلب حمدان – وقيل عبدان – من ابا سعيد بالتوجه إلى بلاد البحرين. وقد وقع الاختيار على هذه المنطقة بالذات من قبل قادة الحركة القرمطية في العراق نظراً لتاريخها النضالي الطويل الذي تميزت به، ضد الإقطاع المحلي والمركزي.

وصل أبا سعيد الجنابي – مؤسس الدولة القرمطية في بلاد البحرين – إلى المنطقة أواخر سنة 274هـ. بعد أن أخذ كافة التوجيهات والنصائح والمال من قادة الحركة القرمطية في العراق. ويعتبر أبا سعيد عن حق ألمع تلاميذ حمدان وعبدان، ويصفه لنا الحمادي اليماني "بأنه فيلسوفاً"[5].

---

(1) محمد عبد الفتاح العليان "قرامطة العراق"، ص203.

(2) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص7.

(3) أبي اسحاق إبراهيم بن محمد "المسالك والممالك"، ص90.

(4) د. الدوري "الدراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص113.

(5) الحمادي اليماني "أسرار الباطنية وأخبار القرامطة"، ص20.

ولم يطئ أبا سعيد الجنابي أرض بلاد البحرين، حتى أخذ يبث أفكاره الثورية في صفوف الجماهير الشعبية المسحوقة، مما أدى، إلى التفاف كافة الطبقات المتضررة من سياسة الدولة العباسية حول حركته. هذا الالتفاف السريع عبر عن مدى تطور القوى الاجتماعية الجديدة، واشتداد حدة الاستثمار الطبقي من قبل الإقطاع المركزي والمحلي، يقول الدكتور الدوري أن نجاح القرامطة في بلاد البحرين يعود إلى (وجود زراعة يسودها الاستغلال الإقطاعي)[1] ولقد اتجه قادة القرامطة في بلاد البحرين في ظل هذه الظروف الجديدة إلى العمل على إشادة سلطة ثورية في هذه البلاد وفصلها عن جسم الدولة العباسية.

غير أن هذا الانفصال، لم يكن يعبر عن طموح ذاتي من قبل أولئك القادة للوصول للسلطة، ولم يكن يعبر أيضاً عن تبعثر إقطاعي على نمط التبعثر، الذي شهدته الإقطاعية الأوروبية في القرون الوسطى بل عبر عن حاجات التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه المنطقة. يقول د. بللوز "من الخطأ الكبير تشبيه عملية تفكك الحكم المركزي في الخلافة، بالتبعثر في الإقطاعية المبكرة في أوروبا، أن الدول المحلية التي أنشأت بعد ضعف مركز الخلافة في بغداد، تعتبر هي أيضاً دولاً مركزية، تعتمد في وحدتها على أساس اقتصادي ثابت وعلى شروط جغرافية ملائمة[2]. وفي سنة 283هـ[3] – أي بعد تسع سنوات من العمل النضالي السري الدؤوب–

---

[1] د. الدوري "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، ص74.

[2] د. نايف بللوز "بعض الملامح الحضارية للإقطاعية الشرقية"، دراسات عربية، تشرين الثاني 1972.

[3] محمد سعيد المسلم "ساحل الذهب الأسود"، ص74.

أعلن قرامكة بلاد البحرين انتفاضتهم المسلحة، تلك الانتفاضة المنسجمة مع الظروف الموضوعية والذاتية، ولم تمض ثلاث سنوات على إعلان ثورتهم الشعبية، حتى أخذت تسقط بين أيديهم مدن بلاد البحرين الواحدة تلو الأخرى، وذلك سنة 286هـ وهي السنة التي أرخ فيها نشوء الدولة القرمطية من قبل ابن الأثير وثابت بن سنان. ولم تستعصي عليهم غير مدينة هجر العاصمة التي سقطت بدورها سنة 287هـ[1] وأصبحت بلاد البحرين كلها تحت سيطرة النظام الثوري الجديد.

ولم يمت أبو سعيد مسموماً سنة 301 هـ[2] إلا وقد امتدت دولة القرامطة إلى الطائف[3].

---

[1] ثابت بن سنان "تاريخ أخبار القرامطة"، ص14.

[2] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص165، وابن الأثير، ج6.

[3] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، ج6، ص147.

الفصل الثاني

نشوء التجربة القرمطية وتطورها

إن الاغتصاب التاريخي للتجربة القرمطية الرائدة وعدم الاهتمام والاعتراف بها. لم يكن من جانب مؤرخي العرب في العصر الوسيط فحسب بل نلمس هذا الاغتصاب- بشكله البشع لدى مؤرخي اليوم وبعض أساتذة التاريخ العربي- الإسلامي في الجامعات العربية للحيلولة دون إعطاء أية أهمية تاريخية لهذه التجربة الثورية على صعيد التراث العربي- الإسلامي بشكل خاص والإنساني بشكل عام.

وأنغمس هؤلاء المؤرخين وبعض الأساتذة الجامعيين في نبش التاريخ التفصيلي للدويلات التي تفرخت ابان تفسخ وأنحلال نظام الخلافة العباسي. منذ منتصف القرن الثالث الهجري والتي لها نفس المدلولات الطبقية للنظام العباسي. (كالدولة الصفارية في فارس من سنة 254- 290هـ/ 867- 903م والدولة الطولونية في مصر والشام 254 –292هـ/ 868-905م والدولة اللمدانية الأولى في الموصل 317- 394هـ/ 929-1003م)[1]، أما عن الدولة القرمطية- من سنة 287- 467هـ- التي ولدت داخل هذا المجتمع العباسي المتفسخ والتي جاءت لتعبر عن رفضها الطبقي الحاد تجاه دولة الاستبداد وسلطة المال والغيبيات التي تكبل الإنسان. ولتعطي هذه التجربة البعد الإنساني للإنسان واسترجاع غربته التاريخية وقيام مجتمع المساواة. نقول أما عن هذه التجربة الثورية. فهذا ليس من شأن مؤرخي اليوم ما دامت هذه التجربة في نظرهم شاذة ومقرفة! خارجة عن إطار الحركة الجدلية للتاريخ العربي- الإسلامي في العصر الوسيط!.

ونحاول هنا إعطاء نبذة- ولو قصيرة- عن المراحل التي مرت بها الجمهورية القرمطية. وعن السمات العامة للمجتمع القرمطي (تاركين مسألة البحث التفصيلي في دراسة مستقلة).

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ "الإسلام السياسي والثقافي"، الجزء الثالث، ص64، 65، 113.

العوامل التي ساعدت على إنجاح التجربة القرمطية:

علاوة على الأوضاع الاجتماعية السياسية والاقتصادية في بلاد البحرين. التي شكلت مناخاً ملائماً لانتشار أفكار الحركة القرمطية هنالك كما وضحنا ذلك في الفصل الأول أن هنالك عوامل أخرى ساعدت على نجاح التجربة القرمطية في بلاد البحرين وأهم هذه العوامل ما يلي:

1 – وجود برنامج ثوري:

إذا كان افتقار "ثورة الزنج" في البصرة- سنة 255- 270هـ[1] بوجود البرنامج الثوري الذي من خلاله تعزز الرؤية الطبقية. لاستقطاب كافة الطبقات المضطهدة والمتضررة من سياسة الدولة العباسية يعد من الأسباب الرئيسية لانتكاسة ثورة الزنج في البصرة. فإن قرامطة بلاد البحرين (الإحساء- القطيف- البحرين[*]- الحالية) أولوا هذه المسألة أهمية بالغة في مجال عملهم النضالي والتحريضي والاستنارة به في بناء الدولة لاحقاً.

من أبرز ما تضمنه برنامجهم الثوري امتلاك الصيغ المتقدمة والتي سنأتي على ذكرها بعد قليل.

---

[1] الدكتور فيصل السامر "ثورة الزنج".

[*] كل مرة نورد كلمة بلاد البحرين في دراستنا هذه، تعني تاريخياً (الإحساء- القطيف- البحرين الحالية).

2 – امتلاك تجربة ثورية:

لم تكن تجربة قرامطة بلاد البحرين الأولى لهم. بل سبقتها تجربة أخرى، وهي تجربة أبو سعيد الجنابي في مدينه جنابة– في فارس– مسقط رأسه[1]، عندما اخذ ينشط في سبيل هذه الأفكار القرمطية في صفوف جماهير هنالك سنة 271هـ ولم تمضي سنتان على نشاطه الثوري هذا حتى اتسعت رقعة عمله النضالي فشملت "جنابة ومهروبان وتوج وشينير"[2] وفي أوائل سنة 274هـ اكتشف أمر أبو سعيد الجنابي من قبل "الشرطة فهرب واختفى"[3] ويقول ابن حوقل أن اكتشاف أمر أبو سعيد "ليس من قبل سوء سياسة فيها كان بسبيله لكن الوجوه وقعت كالضرورة"[4] وأخيراً استدعى حمدان قرمط– مؤسس الحركة القرمطية– أبو سعيد الجنابي "وأراد استغلال قابليته في منطقة أخرى فزوده بالدراهم والتعاليم وأرسله إلى بلاد البحرين"[5] وتتضح الفائدة– من خلال هذه التجربة– إن أبو سعيد الجنابي التزم أكثر بقواعد العمل النضالي السري. وظل يمارس نضاله السري الدؤوب مختفياً عن أعين السلطة العباسية بقدر الإمكان، لمدة أثنا عشر سنة من أواخر سنة 274هـ– 286هـ. وعندما أدرك أبو سعيد الجنابي أن الظروف الموضوعية والذاتية مهيئة لإعلان الثورة الشعبية المسلحة انقض سنة (286 هـ[6]) ضد الدولة العباسية فحقق نجاحه الأكبر.

---

(1) أبي إسحاق الاصخري "المسالك والممالك"، ص30.

(2) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص210.

(3) د. الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص163.

(4) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص210.

(5) د. الدوري، المصدر السابق، ص163.

(6) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص13.

3 – كسب البادية:

مثل البدو في الجزيرة العربية، طيلة فترات تاريخها القوة الاجتماعية التي لا غنىٰ عنها لأي نظام يريد التثبت والتمركز في الجزيرة العربية. ولهذا نرىٰ قائد "ثورة الزنج علي بن محمد يغادر منطقة بلاد البحرين، بعد النجاح الكبير في المدن"[1] لأنه لم يستطع "كسب البادية"[2] إلىٰ جانبه.

أما القرامطة. فقد استطاعوا كسب البادية إلىٰ جانبهم من خلال استجابتهم للحاجات الأساسية لهذا القطاع، وحل مشاكلهم المادية والاجتماعية. وهذا ما جعل القبائل تتفاعل مع الحركة القرمطية التي جسدت مصالحهم، بإلغاء الضرائب الباهظة، وتحسين الظروف المعيشية لهم، يعد من إحدىٰ الأسباب الرئيسية لنجاح القرامطة وتثبت حكمهم في منطقة يحيط بها البدو من جهات عديدة. يرافق ذلك قدرة القرامطة علىٰ فهم حياة البادية وأتباع أساليب ناجحة في استمالتهم ولتأثير عليهم.

4 – ارتباطها بالحركة الإسماعيلية:

مثلت الحركة الإسماعيلية قمة التطور الفكري الفلسفي الاجتماعي في القرن الثالث الهجري. ومثلت بالمقابل الحركة السياسية النشطة التي ضمت مضطهدين من جميع الأجناس ضمن بوتقة واحدة، وبذلك استطاعت أن تكتسب معظم المفكرين والأدباء المعارضين للدولة العباسية. وطرحت صيغة المجال التنظيمي لم تشهدها أي حركة أو حزب سياسي – في التاريخ العربي- الإسلامي – مثل دقتها وسريتها، وكان القرامطة، كما هو معروف، إحدىٰ الحركات الثورية التي تفرعت من

---

[1] د. فيصل السامر "ثورة الزنج"، ص56.

[2] المصدر السابق، ص56.

الإسماعيلية. وقد استفاد القرامطة من الناحية الفكرية والفلسفية – من هذه الحركة – أجل فائدة كما بالمقابل استفاد القرامطة من خبرتها الغنية في المجال التنظيمي. وقد جسد القرامطة بأمان وإخلاص تلك المبادئ الإسماعيلية الثورية على الواقع الاجتماعي. بينما نرى بعض القادة الإسماعيليون يتخلون عن الخط الثوري العام للحركة عندما وصلوا إلى السلطة في المغرب ومصر.

مراحل تطور الدولة القرمطية:

لقد مرت الدولة القرمطية منذ نشأتها حتى سقوطها بثلاثة مراحل

أ- مرحلة البناء.

ب- مرحلة التوسع الخارجي.

ج- مرحلة الانكفاء حتى سقوطها على يد الجيوش السلجوقية.

أ- مرحلة البناء الداخلي من سنة 287هـ- 310هـ:

منذ أن تمكن القرامطة من السيطرة التامة على منطقة شرقي الجزيرة العربية (الإحساء، القطيف، البحرين الحالية) واحتلالهم العاصمة هجر سنة "287هـ"[1] شرع أبو سعيد الجنابي والحسن بن سنبر منذ الوهلة الأولى لاستلامهم السلطة البدء في التنفيذ الفوري لتضييق برنامجهم

---

[1] الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، الجزء الحادي عشر، ص368.

السياسي والاجتماعي والاقتصادي الهادف إلى تجسيد المطامح الطبقية للجماهير الفقيرة وتصفية ركائز الثورة المضادة- الاقتصادية والثقافية-.

فلم يشن القرامطة في هذه المرحلة أية هجوم خارجي على أعدائهم الطبقيين المحيطين بدولتهم من كل جانب طيلة ثلاث وعشرون سنة، ولم يجرؤ أعدائهم بالمقابل- طيلة هذه الفترة- على التحرش أو التصدي إلى هذا النظام الثوري الوليد، خاصة بعد الهزيمة الشنيعة التي لحقت بالجيش العباسي على أيدي القرامطة سنة 287هـ وأسر قائده عباس الفتوي"[1].

ويصف لنا المؤرخ الكبير المقريزي الإجراءات الثورية التي طبقها أبو سعيد الجناني فيقول: "أقبل أبو سعيد على جمع الخيل، وأعداد السلاح، ونسج الدروع والمعافر، واتخاذ الإبل وإصلاح الرجال، وضرب السيوف والأسنة، وتعليم الصبيان الفروسية وطرد الأعراب من قريته، وسد الوجوه التي يتصرف منها أمر بلده وأمواله، والرجال، وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخل. وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها. ونصب الأمناء على ذلك وأقام العرفاء على الرجال واحتاط على ذلك كله حتى بلغ تفقده (خط التشديد لنا) أن الشاة إذا ذبحت يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم"[2].

ونستنتج من وصف المقريزي هذا أن القرامطة ركزوا طيلة ثلاث وعشرون سنة على البناء الداخلي منطلقين لعدة اعتبارات:

---

[1] ابن خلكان "وفيات الإعلان"، الجزء الأول، ص148، وثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص15.

[2] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص164.

الاعتبار الأول:

إعطاء الفكر القرمطي أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أرض الواقع الحي. مما أدت هذه الإجراءات الثورية إلى ترسيخ وتعزيز الجذور الطبقية للنظام من جهة. وتفاعل وتلاحم الجماهير الشعبية مع هذا النظام الثوري من جهة أخرى.

الاعتبار الثاني:

التأكيد على حقيقة أهداف ونبل القرامطة من خلال تلك التحولات الجذرية لصالح الجماهير الفقيرة لدحض كل الافتراءات والإشاعات التي روجها مؤرخو الفكر الرسمي، حول أن القرامطة قوم غلاظ لا هم لهم إلا "القتل والسلب والحرق"[1] ولكي يميزوا أيضاً أهداف حركتهم هذه عما قام به بعض الفرق من قتل وتدمير- بدأوا ببرامج واضحة- أثناء تمردها على الخلافة العباسية.

الاعتبار الثالث:

في هذه المرحلة. ركز القرامطة على بناء القاعدة العسكرية الشعبية للنظام وتطويرها. وذلك من خلال تجنيد الجماهير وتسليحها وتعليمها فن الفروسية- كما أشار بذلك المقريزي- لتقف على أهبة الاستعداد التام ضد أي غزو قد تباغت به الدولة العباسية أو غيرها من القوى الطبقية المعادية.

---

[1] راجع كتاب "الفرق بين الفرق" أبو المنصور البغدادي وتاريخ الحركات السرية لمحمد عبد الله عنان.

الاعتبار الرابع:

إدراك القرامطة لمستوى قوتهم الذاتية وتقديرهم للأوضاع الاجتماعية والسياسية المعادية والمحيطة بهم، تعد من إحدى الأسباب الرئيسية التي شكلت أملاً هاماً على تطوير- الوضع الذاتي وعدم الاصطدام مع ا"لدولة العباسية- في هذه المرحلة الأولى- من خلال السيطرة على بعض أجزاء الإمبراطورية العباسية المحيطة والقريبة إليهم، ونلمس هذا التكتيك الثوري من خلال رسالة أبي سعيد الجنابي- مؤسس الدولة القرمطية- إلى الخليفة العباسي المعتضد والذي يقول فيها: "أنظر فإني ما اغتصبتك بلداً كان في يدك ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل. ومع هذا فو الله لو نفذت جيشك كله ما جاز أن تظفر بي ولا تنالني لأني رجل نشأت في هذا القشف فتعودته أنا ورجالي، فلا مشقة علينا فيه ونحن بأوطاننا مستريحون"[1].

ولم يمت أبا سعيد الجنابي مقتولاً غدراً سنة 301هـ[2] وقبل سنة 303هـ[3]. إلا والدولة القرمطية قد ارسخت قواعدها في البناء الداخلي على كافة الأصعدة. وواصل المجلس العقداني استكمال المرحلة الاولى حتى نهايتها سنة 310هـ.

[1] التنوخي "الفرج بعد الشدة" الجزء الأول، ص115116، وبندلي جوزي.

[2] الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، الجزء الحادي عشر، ص408.

[3] د. جمال سرور "النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص64.

المرحلة الثانية من سنة 310هـ- 385هـ "مرحلة الحروب الخارجية":

لقد انطلق القرامطة بنظرة ثاقبة أن استمرار قيام النظام القرمطي والحفاظ على مكاسب الثورة القرمطية لا يمكن أن يتم بالانزواء في هذه البقعة الصغيرة- أي الاحساء، والقطيف والبحرين- مهما ترسخ النظام القرمطي فيها. بفعل حجم قوى الثورة المضادة التي ستباغت في يوم ما جمهوريتهم الثورية، من هنا انطلق القرامطة وبادروا بنشاطهم العسكري الثوري، لنقل تجربتهم الإنسانية الرائعة وتطبيقها على المجتمع العربي- الإسلامي- إذا أمكنت الظروف- من خلال تحطيم الخلافة العباسية وهي في عقر دارها.

لذا شن القرامطة حروبهم الطبقية العديدة، التي بلغت أكثر من ثلاثين حرباً ضد الدولة العباسية ثم الدولة البويهية التي حكمت العراق ثم الدولة الفاطمية في مصر وإفريقيا. حتى وصلت الدولة القرمطية في سنة 361هـ إلى ذروة عصرها في الفتوحات الخارجية، تمتد من الصعيد المصري "أسوان وأفيم"[1] إلى "مصب الفرات"[2]. ولقد برز ضمن وسطهم قادة عسكريين ثوريين يعتبرون عن حق وبدون اندفاع عاطفي من أبرز القادة العسكريين في القرن الرابع الهجري وهما القائدان العظيمان أبا طاهر القرمطي والحسن الأعظم القرمطي.

---

[1] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص106.

[2] محمد الخضري " تاريخ الأمم الإسلامية"، الجزء الثاني، ص425، وعارف تامر "القرامطة".

أبا طاهر القرمطي:

يؤكد جميع المؤرخين الرسميين في العصر الوسيط. على أن أبا طاهر القرمطي (كان رجلاً شجاعاً شهماً)[1]، ويضيف البعض "وكان مع قلة دينه- لعنه الله!- عنده فضيلة وفصاحة وأدب"[2].

انتخب أبو طاهر القرمطي قائداً عاماً سنة 311هـ وفي نفس السنة وقبل سنة 311هـ[3] احتل أبو طاهر البصرة وفي سنة 312 ضم اليمامة إلى الجمهورية القرمطية وفي سنة 315هـ[4] أضم أيضاً عُمان وفي سنة 317هـ احتل الحجاز ودخل مكة "وأخذ الحجر الأسود"[5]، وظل "الحجر الأسود اثني وعشرين سنة"[6] وبذلك أصبحت الجزيرة العربية كلها ضمن إطار الجمهورية القرمطية.

ولقد خاض أبو طاهر القرمطي أكثر من أربعة عشر حرباً- كلها تقريباً ناجحة- حتى وصل على بعد "فرسخين من بغداد"[7] ويذكر أبي المحاسن فيقول "ولولا قطع القنطرة لكان القرمطي عبر عليها، وهزم عسكر الخليفة وملك بغداد"[8] واحتل أبو طاهر مدينة الكوفة عدة مرات

---

(1) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص36، وابن الأثير، الجزء السادس، ص147.

(2) أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الثالث، ص281.

(3) المسعودي "التنبيه والإشراق"، ص330 ، وعريب بن سعد، الجزء الثاني عشر، ص57.

(4) ابن خلدون "ديوان العبر"، الجزء الرابع، ص89.

(5) ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الجزء السادس، ص213.

(6) أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الثالث، ص302، ابن العساكر "تاريخ ابن عساكر"، الجزء الرابع، ص243.

(7) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص48.

(8) أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الثالث، ص217.

سنة "313هـ- 315هـ"، 319هـ 323هـ، 325هـ"[1] وأشهر معركة قادها أبو طاهر القرمطي سنة 315هـ عندما عزم أكثر من ثمانين ألف جندي وأسر قائده العباسي يوسف بن أبي الساح"[2] وكان مع أبو طاهر القرمطي ألفين وسبعمائة جندي. حتى أن الخليفة العباسي قال "لعنة الله نيفا وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة"[3] وأصبحت كلمة قرمط- بعد هذه المعركة الشهيرة- شخص لا يقهر يصنع المعجزات والعجائب.

ولم يمت أبو طاهر القرمطي في سنة 332هـ[4] "وعمره ثمانية وثلاثين سنة" إلا وقد "فرض على أهل خرسان وبغداد والشام ومصر الأموال العظيمة كانت تحمل إليه كل سنة إتقاء شره!"[5] ويعتبر أبو طاهر من شعراء القرامطة البارزين ويقول الحجاوي اليماني "ولأبي طاهر أشعار كثيرة[6]، ولقد دون لنا البيروني وأبو المنصور البغدادي كثيراً من أشعاره ولولا ضيق المجال لذكرنا شيء من أشعاره.

أما في المجال الداخلي. فقد عزز أبو طاهر الهوية الطبقية للنظام. مما جعل الجماهير الكادحة هنالك تتعلق بشخصيته المحبوبة كما وصف لنا المؤرخ ابن مسكويه واستجاب لأبي طاهر خلف وافتتنوا به"[7].

---

(1) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، وابن الجوزي "المنتظم"، الجزء السادس.

(2) ثابت بن سنان، نفس المصدر، ص47.

(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(4) المسعودي "التنبيه والإشراق"، ص338.

(5) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص104.

(6) الحمادي اليماني "أسرار الباطنية وأخبار القرامطة"، ص20.

(7) ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الخامس، ص57.

وفي عهد أبو طاهر "وصلت الفلسفة القرمطية- المادية- وتعاليمها شكلها النهائي"[1] ويصفه أيضاً المؤرخ بندلي جوزي "وعند وفاة أبي طاهر ورثوا عنه كثير من صفاته الإيجابية كالشجاعة وحسن الإدارة والميل إلى تضحية المصالح الشخصية في سبيل المصلحة العامة والاهتمام، بما يعود على الزراع والعمال بالخير والإخلاص للنظام الجديد الذي سنه مؤسس مذهب القرامطة في بلاد البحرين وحافظ عليه إلى آخر يوم من حياته"[2].

الحسن الأعظم القرمطي:

وصرخ القائد جوهر الصقلي عند باب القاهرة "من جاء بالقرمطي – يعني الحسن الأعظم – أو برأسه فله ثلاث مائة ألف درهم وخمسون سرجاً مجلى على دوابها".

يعتبر الحسن الأعظم القرمطي الذي انتخب قائداً عاماً للجيش القرمطي سنة 350 هـ من ابرز القادة العسكريين في منتصف القرن الرابع الهجري. وفي سنة 361هـ، انتخب الحسن الأعظم القرمطي رئيساً للمجلس العقداني – وبذلك يكون ثاني زعيم قرمطي يجمع بين المنصبين – ونود هنا الوقوف ولو قليلاً – عند تاريخ هذا الشاعر الإنساني الكبير. والقائد الثوري المغمور.

تعتبر المعارك التي خاضها الجيش القرمطي – في عهد الحسن الأعظم – من قوى وأشرس المعارك التي شهدتها الجمهورية القرمطية، بفعل تكابل قوى الثورة المضادة عليها. (الجيوش البويهية وجيوش الدولة

---

[1] محمد عنان عبد الله "تاريخ الحركات السرية"، ص34.

[2] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

الفاطمية) وأول معركة قادها الحسن الأعظم "سنة 354هـ عندما احتلت الجيوش البويهية عُمان[1] و"استطاع الحسن الأعظم أن يسترجع عُمان[2] إلى حظيرة الجمهورية القرمطية. وفي سنة 356هـ احتل الحسن الأعظم فلسطين"[3]، وفي سنة 357هـ احتل دمشق وولي عليها وشاح السلحب القرمطي"[4].

الحصار الأول على القاهرة:

احتلت الجيوش الفاطمية بقيادة القائد الفاطمي المشهور جوهر الصقلي لمدينة القاهرة أواخر سنة 358هـ[5] ثم احتلت فلسطين ودمشق. وقد أدرك القرامطة الخطر الآتي عليهم من هذه الدولة الطبقية الفتية. لذا عزم القرامطة على محاربة هذه الدولة – الفاطمية – التي تخلت عن المبادئ الأساسية للحركة الإسماعيلية – القرمطية.

فتحرك الجيش القرمطي بقيادة الحسن الأعظم فاحتل دمشق سنة 360هـ[6] وقتل واليها القائد الفاطمي المشهور جعفر بن فلاح، بعد أن استهان جعفر "بقلة القرامطة"[7] ثم واصل الجيش القرمطي زحفه فاحتل "الرملة والطبرية وحاصر يافا حصاراً شديداً[8] ثم واصل زحفه إلى قلب

---

(1) ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص63.

(2) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص22.

(3) ابن العساكر "تاريخ ابن العساكر"، الجزء الرابع، ص148.

(4) ابن العساكر "تاريخ ابن العساكر"، الجزء الرابع، ص148.

(5) ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الجزء السابع، ص47.

(6) أبو الفداء "مختصر أخبار البشر"، الجزء الثاني، ص111.

(7) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة".

(8) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة".

الأراضي المصرية "فخضع السويس وفرساً وحكم بذلك برزخ السويس واعترفت بسلطانه مدينة تبنس"[1] واحتل القائد عبد الله بن عبد الله القرمطي الصعيد المصري "أسوان وافيم.."[2] وعسكر الجيش القرمطي أخيراً عند عين شمس. ودارت هنالك المعارك الطاحنة عند سور القاهرة[3]. وضيق القرامطة الخناق على جيوش الدولة الفاطمية الجرارة مما جعلوا القائد الفاطمي المعروف جوهر الصقلي يصرخ عند باب القاهرة صرخته المعروفة وكاد الجيش القرمطي أخيراً أن ينتصر لولا خيانة وانقضاض سابور "المؤيد للفاطميين"[4] على السلطة في الإحساء أثناء غياب المجلس العقداني والجيش القرمطي وقد أنقذ سابور بذلك الجيوش الفاطمية وجعلهم يتنفسون الصعداء مما اضطر الحسن الأعظم القرمطي على التراجع وترك حصار القاهرة، حفاظاً على نظامهم الثوري هنالك. وقال الحسن الأعظم عند انسحابه بيتين من اشعر لعما المغزى العميق في التصميم على مواصلة القتال ضد الدولة الفاطمية. قال الحسن الأعظم:

زعمت رجال الغرب أني هبتها

فدمي إذن ما بينهم مطلول

يا مصر إن أم اسق أرضك من

يروي ثراك فلا سقاني النيل[5]

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ "الفاطميون في مصر"، ص113.

[2] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص150.

[3] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص130.

[4] د. جمال سرور "النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب"، ص45.

[5] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص59، ابن العساكر "تاريخ ابن العساكر"، الجزء الرابع، ص149.

الحصار الثاني على القاهرة:

استطاع الجيش القرمطي أن يقضي على مؤامرة سابور ويحافظ على الهوية الطبقية للنظام ويقول ابن حوقل "إن إعدام سابور تم بإجماع أعضاء المجلس العقداني"[1].

فتحرك الجيش القرمطي، مرة ثانية بقيادة الأعظم القرمطي سنة 363هـ[2]، متجهاً إلى القاهرة، ودمر الأسطول القرمطي قرب مدينة يافا الأسطول الفاطمي تدميراً تاماً[3]، وبينما كان الحسن الأعظم في طريقه إلى القاهرة وصلت إليه الرسالة الشهيرة المطولة من عند الخليفة الفاطمي المعز لدين الله "يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن دعوة القرامطة إنما كانت إلى أبائه وبالغ في رسالته وتهدده"[4]، وكانت رسالة الخليفة الفاطمي تحتوي على ثلاثة عشر صفحة كبيرة"[5]، فأرسل الحسن الأعظم رسالة إلى الخليفة الفاطمي تتكون من ثلاثة عشر كلمة. وهذه هي نص الرسالة من الحسن بن أحمد القرمطي الأعظم "وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على أثره وسلام"[6].

---

(1) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص23.

(2) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص59، أبو الفداء "مختصر أخبار البشر"، الجزء الثاني، ص311.

(3) المصدر السابق.

(4) ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص54.

(5) راجع نص الرسالة في كتاب المقريزي "اتعاظ الحنفا".

(6) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص205، ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص60.

فالتحم الجيشان عند عين شمس وكانت الأيام الأولى انتصاراً للجيش القرمطي"[1] ودحراً للجيش الفاطمي وتنذر بانهيار الدولة الفاطمية "فلما رأى ذلك الخليفة المعز استعظم الأمر وتحير وارتبك في أمره فجمع حاشيته ووزراءه فأشار عليه وزيره ابن غنام بأنه ليس هنالك حيلة أعظم من العمل على تفريق هذه الجموع ولا يكون ذلك إلا بواسطة ابن الجراح. فأرسل المعز إليه مائة ألف دينار ووعده بأكثر منها إذا انتصر على القرامطة"[2]، وكان ابن الجراح هذا رئيس بادية الشام انضم إلى الجيش القرمطي مع قبيلته عندما مر الجيش على الشام سنة 363هـ "فلما استلم الجراح المال انهزم مع قبيلته"[3]، فلما رأى الحسن الأعظم خيانة ابن الجراح وكانت جموعه تساوي ربع الجيش القرمطي لم ييأس الحسن الأعظم "وثبت في الميدان وقاتل"[4]. وكاد الجيش القرمطي أن ينتصر فعلاً – على الرغم من خيانة وهروب الجراح – لولا الهجوم الغادر الذي قامت به الجيوش البويهية واحتلالهم عاصمة القرامطة الإحساء[5] وبذلك انقذت الجيوش البويهية التي تحكم العراق – الدولة الفاطمية من السقوط المحتم. وأمام هذا الظرف الجديد اضطر الجيش القرمطي على الانسحاب وترك حصار القاهرة. ليتسنى له الدفاع عن جمهوريتهم من الغزو البويهي وكان الحسن الأعظم بانسحابه "قائداً حكيماً"[6]. ولم تجرؤ القوات الفاطمية على قتاله وهو في حالة التراجع والانسحاب ووصل الجيش

---

(1) محمد عبد الله عنان "تاريخ الجمعيات السرية"، ص35، ابن الأثير، الجزء السابع، ص68.

(2) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص60.

(3) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص60- 61.

(4) ابن خلدون "ديوان العبر"، الجزء الرابع، ص50، ابن الأثير، الجزء السابع، ص54.

(5) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص107.

(6) عارف تامر "القرامطة".

القرمطي إلى بلاده ودارت هنالـك معركـة طاحنـة معركـة الوجـود أو لا وجود بالنسبة للقرامطة وقد انتصر أخيراً القرامطة انتـصاراً سـاحقاً عـلى الجيوش البويهية ويصف لنا ثابت بن سنان الـذي عـاش في تلـك الفـترة التاريخية فيقول "وكانت بينهم وقعة عظيمة قتـل فيهـا رجـال العـسكر – البويهيين – وأخذت أمـوالهم ففرحـت نفـس الحـسن الأعظـم وعـادت دولته"[1].

الحصار الثالث:

احتلت الجيـوش الفاطميـة فلـسطين ودمـشق سـنة 365هـ[2] بعـد انسحاب القرامطة منها "وقد عاث الجيش الفـاطمي فـساداً وإرهـاب في البلد"[3]، مما جعل سكان دمشق يترحمون على حكم القرامطة – القـصير- ثم أرسلوا وفداً إلى الإحساء يطلبون النجدة ومساعدة القرامطة لهم"[4].

فـسار الجـيش القرمطـي بقيـادة الأعظـم إلى البـصرة ومـساعدة الدمشقيين فلما وصل الجيش القرمطي إلى دمـشق خـاف جـوهر الـصقلي "وتراجع عن دمشق إلى الرملة"[5]. وهنالـك تعاون الجيش القرمطـي مـع القائد افتكين الذي عينوه الدمشقيين عائداً لهم. وحـاصر الاثنـان جـوهر الـصقلي في عـسقلان حـصاراً شـديداً وطـال الحـصار وقلـت الأقـوات

---

(1) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص60.

(2) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص66.

(3) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص67.

(4) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص66.

(5) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص67.

واضطروا إلى أكل الميتة"[1]. ووقع القائد جوهر أخيراً – أسيراً ولكنه استطاع بذكائه أن يفلت من الأسر بعد أن خدع القائد افتكين عندما اجتمع به فقال جوهر، "وقد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين وقد طالت هذه الفتنة. وراجع نفسك وغلب رأيك على شكوى غيرك"[2]. فقال القائد افتكين أنا والله واثق بك في صحة الرأي المنشورة منك ولكني غير متمكن مما دعوتني إليه بسبب القرمطي – يقصد الحسن الأعصم – الذي احوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه"[3]، فقال له وهو أيضاً متوسلاً "إني أصدقك الحال طويلاً على أمانتك وما أجده من الفنون عندك، قد ضاق الأمر بنا واريد أن تمن علي بنفسي وبمن معي من المسلمين لأعود إلى صاحبي – يعني الخليفة المعز – شاكراً لك وتكون قد جمعت بين حقن دماء واصطناع المعروف"[4]، وأخيراً أطلق القائد افتكين سراح القائد جوهر وسمح له بالسفر إلى مصر[5]، ولما انصرف الحسن الأعظم – الذي يحاصر وهو من جهة أخرى – خيانة أفتكين قال له "لقد أخطأت فإن جوهر له رأي بحزم ومكيدة"[6] وسيرجع جوهر على رأس جيوش جرارة "لقتالنا بما لا طاقة لنا به وكان الصواب أن نجعلهم يموتون جوعاً"[7] ولم تمض فترة قصيرة إلا والقائد جوهر مقبل عليهم بجيوش كثيفة وعلى رأسها ولي العهد الفاطمي العزيز بالله. فدارت

---

[1] المصدر السابق، ص67.

[2] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[3] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[4] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[5] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[6] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[7] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

المعارك الطاحنة عند الرملة[1] فانهزمت قوات افتكين ثم اسر على أثرها[2]. أما الحسن الأعظم فقد انسحب إلى طبرية[3] فأرسل له العزيز بالله الفاطمي "عشرون ألف دينار ضريبة له"[4].

الحرب الرابعة وموت الأعظم:

إن تصميم وعزم القرامطة على مواصلة القتال ضد الدولة الفاطمية في مصر وإفريقيا له مدلولاته.

1 - إن هذه الدولة - في نظر القرامطة - خانت المبادئ الأساسية للحركة الإسماعيلية - التي كانت الحركة القرمطية أحد فروعها ولكن الفرع الأمين والمخلص لتلك المبادئ الأساسية في الحركة الإسماعيلة - عند وصول الفاطميين - السلطة فقد مارسوا القهر السياسي والاستغلال الطبقي.

2 - إن احتلال فلسطين والشام من قبل القوات الفاطمية هو تضييق الخناق على الجمهورية القرمطية العلمانية التي كانت في نظرهم مصدر إزعاج وقلق بالنسبة إليهم.

3 - إدراك القرامطة أن موت القائد الملهم أبو طاهر القرمطي سنة 332 هـ كان بدسيسة وتعبئة "من الفاطميين"[5] عندما كان أبو طاهر ينوي الهجوم على سوريا ومصر. لهذه الأسباب انطلق القرامطة في حربهم الرابعة ضد الدولة الفاطمية. وقد دار نقاش حاد داخل المجلس العقداني

---

[1] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص64.

[2] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص108.

[3] ابن خلدون "ديوان العبر"، الجزء الرابع، ص92.

[4] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

[5] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص205.

بين الحسن الأعصم وكسرى بن أبي القاسم وصخر بن أبي اسحاق وأبو بكر شاخويه من جهة وبين عبد الله بن عبيد الله القرمطي من جهة أخرى. فقال لهم عبيد الله القرمطي "أروني ما عندكم من القوى التي تقاومون بها صاحب مصر. فأوقفوه على ما عندهم من المال والسلاح والكراع فاستقله – استخفه – وقال بهذا تقاومون صاحب مصر والشامان والمغرب[1]. ويقال أن القائد عبيد الله القرمطي ترك بلاد القرامطة "وذهب إلى العراق"[2].

ولكن إيمان القرامطة القوي بعدالة قضيتهم لم تهن من عزمهم قلة المال والسلاح. فتحرك الجيش القرمطي في شهر جمادى الثاني 366 هـ فاحتل الشام والرملة وهنالك مات القائد المقدام الحسن الأعظم القرمطي في "الرملة في شهر رجب 366 هـ"[3]. وهو في طريقه إلى القاهرة.. وقد ختم حياته النضالية هذه بمثل يضرب عند البدو والحضر على قوة العزيمة والإصرار حتى قيل فيه المثل المشهور "مثل عزم الأعصم كذلك من أبرز شعراء القرامطة وقد ثنى كثير من المؤرخين على شعره أمثال ابن الثير وثابت بن سنان وابن العساكر..الخ، ويقول عبد القادر الأنصاري "له شعر قوي يدل على همته.."[4]. ومن شعر الحسن الأعصم القرمطي اخترنا هذه الأبيات:

---

[1] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص205.

[2] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص65، أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الرابع، ص128.

[3] عبد القادر الأنصاري "تاريخ الإحساء القديم"، ص93.

[4] عبد القادر الأنصاري "تاريخ الإحساء القديم"، ص93، ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص111.

إني امرؤ ليس من شأني ولا أربي

طبل يرن ولا نـــاي ولا عـود

ولا اعتكاف على قمـــر ومجمرة

وذات دل لهـــا بالغنج وتاويد

ولي رفيق خميص البـــطن مجهود

ولا تسامت بي الدنيا إلى طمع

يوماً ولا غراني فـيها المـــواعيد[1]

القائدان جعفر واسحاق:

انتخـب جعفـر قائـداً عامـاً للجـيش القرمطـي "في فلـسطين سـنة 366هـ"[2] وانتخب اسحاق رئيساً للمجلـس العقـداني وواصـلا جعفـر واسحاق حربهما ضد الجيوش الفاطمية "حتى هزموها سـنة 368هـ"[3] ثم عادا من فلسطين إلى بلدهم. وفي سنة 375هـ[4] قاما اسـحاق وجعفـر بهجومهم على مدينة الكوفة فاحتلوها"[5] وقد قام القرامطـة بـآخر نـشاط عسكري لهم سنة 385هـ[6] على مدينة البصرة. وبذلك تكون البصرة أول

---

[1] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص108.

[2] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

[3] ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الجزء السابع، ص126.

[4] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص126.

[5] أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الرابع، ص169.

[6] ابن خلدون "ديوان العبر"، الجزء الرابع، ص459.

هدف للقرامطة بنشاطهم العسكري سنة 311هـ وآخر هجوم عسكري لهم على أعدائهم.

خصائص المرحلة الثانية:

بفعل ما وصلت إليه الدولة القرمطية "من البأس والهيبة عند أهل الدول"[1] عبر نشاطهم العسكري هذا، فقد أخذوا الضرائب والأتاوة على أعدائهم الطبقيين. وأهم تلك الضرائب والأتاوات التي استمرت سنين طويلة.

1 - ضريبة على الخليفة العباسي وقدرها مائة وعشرون ألف دينار سنوياً[2].

2 - أخذ ضريبة على كل حاد دينار[3].

3 - أخذ ضريبة على كافور الأخشيدي وقدرها ثلاثمائة ألف دينار سنوياً[4].

4 - ضريبة على خراسان ودمشق[5].

5 - تعيين أبا بكر شاخويه سفيراً للقرامطة في البلاط العباسي وهو أول سفير تحتضنه بغداد، ويصف لنا المؤرخ ابن مسكويه الذي عاش في تلك الفترة التاريخية فيقول "وابو بكر شاخويه صاحبهم يجري بالحضرة مجرى الوزراء في حالة الإصفاء من الملوك راجع الى أقواله.

---

(1) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

(2) ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثاني، ص60.

(3) أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الرابع، ص74.

(4) ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص104.

(5) ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثالث، ص109.

"أكابر الناس يخشونه مجتمعين لكبره والمنقادين لأمره ولا سبب إلا اعتزاؤه الى هؤلاء القوم"[1].

المرحلة الثالثة من سنة 385 هـ- 468هـ: مرحلة الانكفاء حتى السقوط:

في هذه المرحلة لزم القرامطة الهدوء وعدم نشر دعوتهم بالقوى العسكرية. بعد أن أدركوا أن الظروف الموضوعية لا تخدم نشاطهم العسكري الثوري الذي دام أكثر من سبعين سنة من النضال المرير ضد أعدائهم والذي كان يهدف من ورائه القرامطة السيطرة إما على عاصمة الخلافة العباسية بغداد أو القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية. لضمان استمرار نظامهم الثوري هذا ولما فشل القرامطة في تحقيق استراتيجيتهم الثورية هذه اعتكفوا في منطقة بلاد البحرين (الاحساء، القطيف والبحرين الحالية) مدة اثنين وثمانون سنة. وقد زارهم الرحالة ناصر خسرو سنة 443هـ فقال "ليس هنالك يد في البصرة تجرؤ على مهاجمة القرامطة"[2]. وأضاف أيضا "هنالك في الاحساء- عشرون ألف محارب."[3]. وبعد ثلاث وعشرين سنة من زيارة ناصر خسرو جاءت الجيوش السلجوقية الجرارة بقيادة "الملك سالار"[4] وحاصرت الاحساء "لمدة سنة"[5] أستبسلت الجماهير في الدفاع عن نظامها الطبقي. وأخيراً سقطت هذه التجربة الثورية "سنة 461هـ"[6] وسوف نتطرق عن أسباب سقوطها.

---

[1] ناصر خسرو، "سفر نامة".

[2] ناصر خسرو، "سفر نامة".

[3] عبد القادر الأنصاري "تاريخ الإحساء القديم"، ص98.

[4] عبد القادر الأنصاري "تاريخ الإحساء القديم"، ص98.

[5] المسعودي "مروج الذهب"، الجزء الثاني، ص395.

[6] راجع رسالة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في كتاب "اتعاظ الحنفا" للمقريزي.

السمات العامة للمجتمع القرمطي:

تبرز عظمة التجربة القرمطية وريادتها في العالم- في العصر الوسيط - من خلال اطلاعنا على برنامجهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والذي يعتبر العامل الرئيسي في سر حيوية وثبات هذا النظام واستمراره قرابة القرنين من الزمن.

أ- طبيعة النظام السياسي:

لقد أشاد القرامطة سلطه سياسية شعبية لأول مرة في التاريخ العربي- الأسلامي. سلطة تعزز الطموحات للجماهير الكادحة من جهة، وتفسح المجال أمامها لتتبوء صدارة المجتمع من جهة ثانية، متجاوزين بذلك الأنظمة السياسية السائدة في عصرهم كسلطة الخليفة الزمنية والدنيوية "ظل الله بينه وبين خلفه"[1]. أو سلطة الإمام المعصوم من الخطأ "أول الفكرة وآخر الفكرة"[2] وتبرز السمات الديمقراطية للنظام القرمطي بما يلي:

1- القيادة الجماعية:

إن السلطة السياسية القرمطية لم تنحصر إطلاقاً طيلة فترة استمرارها من 286هـ- 467هـ في شخص واحد وإنما كانت هذه السلطة في يد قيادة جماعية في يد المجلس العقداني (الشعبي) المكون من ست أعضاء دائمين وست أعضاء احتياط وتؤخذ القرارات على أساس ديمقراطي. ويصف لنا ناصر خسرو الذين زار القرامطة فيقول (هنالك منصة يجلس

---

(1) ناصر خسرو، "سفر نامة"، الطبعة الأولى، ص92.

(2) أبو العلاء المعري "اللزوميات"، الجزء الثاني، ص142.

عليها هؤلاء السته جلسات رسمية، حيث يصدرون الأوامر يشرعون القوانين بعد أن يتم الاتفاق فيما بينهم ويساعدهم في هذا ستة أشخاص مستشارين يجلسون خلفهم على منصة أخرى. وكل الأمور يتخذون بشأنها القرارات بالشورى"[1].

هذا النوع الجديد من القيادة السياسية هي التي جعلت الشاعر الكبير فيلسوف الشك أبو العلاء المعري أن يقف ويذكرفي "لزومياته" أبو سعيد الجنابي، مؤسس الدولة- والحسن بن سنبر رئيس المجلس العقداني.

عكس الأنام بحكمه من ربه فتحكم الهجري فيه وسنبر[2].

2- عدم الفصل بين السلطات:

لقد أدرك القرامطة بنظرة ثاقبة خطر الفردية والبيروقراطية على النظام القرمطي لذا طرح القرامطة صيغة متقدمة ومنسجمة كل الانسجام مع الهوية الطبقية للنظام. تلك الصيغة التي لم يتوصل إليها- إلى حد الآن – معظم الدول في الوقت الحاضر ألا وهي عدم الفصل التعسفي الميكانيكي بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية بل أصبحت جميع هذه السلطات بيد المجلس العقداني "المنتخب" من قبل الجماهير الكادحة فهو الذي يقرر في كافة المسائل الحاسمة والخطيرة، يقول الدكتور الدوري "كما كان على الرئيس استشارة ذلك المجلس الذي يضم أبرز الشخصيات في القضايا السياسية والعسكرية والإداريه"[3].

---

[1] د. عبد العزيز الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص27- 28.

[2] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

[3] نقلاً عن كتاب الدكتور الشهاري "الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال"، ص302.

3- قابلية العزل في أي لحظة:

إن الديمقراطية التي أكد عليها النظام القرمطي هي ليست بمثابة تلك الديمقراطية التي شهدها المجتمع اليوناني والروماني في العصر العبودي "ديمقراطية الأحرار" بينما ظل العبيد خارج إطار المجتمع خارج إطار التاريخ إن الديمقراطية الثورية التي سعى إلى تحقيقها النظام القرمطي هي فسح أوسع المجالات أمام مساهمة الجماهير الفعلية في تسير النظام. فالجماهير لا تنتخب وتشارك في الانتخاب فحسب بل لها الحق في قابلية العزل في أي لحظة أي عنصر مسؤول في المجلس العقداني عندما ترى ذلك مناسباً وحفاظاً على مكاسبها الطبقية. وهذا ما حصل فعلاً عندما عزلت الجماهير "سابور – عضو المجلس العقداني- سنة 354هـ ثم إدانة سنة 361هـ عندما تآمر على النظام – كما وضحنا ذلك سابقاً – كما وأن الجماهير سحبت ثقتها في القائد جعفر المذكور آنفاً سنة 378هـ"[1].

ويقول محمد عمارة واصفاً الديمقراطية التي تتمتع بها الجماهير الشعبية هناك "وبلغت حد أنها حكمت القرى والمدن عبر مجالس منتخبة باقتراع عام"[2].

4- إلغاء – الألقاب الطبقية:

من الإجراءات الثورية التي اتخذها المجلس العقداني- نسبة إلى العقيدة أو المبدأ- هو إلغاء الألقاب الطبقية داخل المجتمع القرمطي. في عصر كان مزدهراً ومجسداً لهذه الألقاب الطبقية الرنانة كأمير المؤمنين

---

(1) ناصر خسرو، "سفر نامة"، ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص110.

(2) د. الدوري، المصدر السابق.

الذي استخدمه العباسيين، والفاطميين والأمويين الأندلس وفي وقت واحد وكذلك الألقاب الطبقية الأخرى.

أما القرامطة فاستخدموا فقط لقب "السيد"[1] لكل عضو في المجلس العقداني بما فيهم رئيس المجلس العقداني[2] ولقب مستشار للأعضاء الاحتياط[3].

5 - نوعية النظام:

لقد اختلف بعض المؤرخين حول تحديد هوية النظام القرمطي.هل هو نظام وراثي مقيد ام جمهوري شعبي. فلقد انطلق أصحاب الرأي الأول. بأن الحكم في بلاد البحرين (الإحساء، القطيف، البحرين الحالية) ظل داخل أسرة آل أبو سعيد الجنابي يتوارثونه بجانب المجلس العقداني- ومن هؤلاء الدكتور الدوري الذي يقول: "فمع أن الحكم كان في البحرين وراثياً في عائلة أبي سعيد الجنابي إلا أنها وراثة مقيدة برأي المجلس العقداني الأعلى."[4].

أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يشيرون على أن شكل النظام السياسي القرمطي في بلاد البحرين هو نظام جمهوري ومن هؤلاء برناردلويس[5] وبندلي جوزي[6] ونحاول هنا أن ندعم الرأي الثاني. بأن النظام القرمطي نظام جمهوري شعبي منطلقين من أدلة عديدة.

---

(1) ناصر خسرو، "سفر نامة"، وبندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

(2) د. الدوري، المصدر السابق، ص27.

(3) برنارد لويس "الحشيشة".

(4) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

(5) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص23.

(6) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

1- لم يتولى قيادة الجيش القرمطي من عائلة أبو سعيد الجنابي إلا ثلاثة وهم أبو الطاهر القرمطي والحسن الأعصم وجعفر. وهؤلاء- سواء كانوا من أسرة أبو سعيد أو لم يكونوا- فقد توفرت الشروط اللازمة لهذا المنصب قد ذكرنا في معرض حديثنا عن الصفات الإيجابية المتوفرة عند هؤلاء.

2- هنالك قادة آخرون تسلموا قيادة الجيش مثل ثور بن ثور الكلابي الذي قال عنه ابن حوقل (بأنه قائد جيشهم لجميع الأصقاع"[1].

3- انتخب اشخاص لرئاسة المجلس العقداني من غير أسرة أبو سعيد الجناني مثل الحسن بن سنبر وسليمان الجلي وأبو محمد بن سنبر واسحاق.

4- عندما لمست الجماهير الثورية هنالك بعض الممارسات الخاطئة لأحد أحفاد أبي سعيد الجناني ألا وهو جعفر سحبت رئاسة الجيش منه "وتسليمها إلى رجال آخرين"[2].

5- من خلال وصية أبي سعيد الجناني الذي قال: "إن يتولى ستة أشخاص إلى الأبد شؤون الحكم ويحكموا بالعدل والمساواة ثم أمرهم زيادة على ذلك بأن يظلو دائماً متحدين"[3].

6- من خلال زيارة ناصر خسرو للقرامطة سنة 443هـ وكذلك ابن حوقل الذي سبق ناصر خسرو سنة 365هـ يؤكدون أن الأمور بيد المجلس العقداني وكلمتهم واحدة"[4].

---

(1) ناصر خسرو، "سفر نامة".

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص23، ناصر خسرو، المصدر السابق.

(3) الطبري "تاريخ الأمم والملوك"، الجزء الحادي عشر، ص370.

(4) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص160.

7- تتضح الصورة أكثر عن طبيعة النظام القرمطي من خلال نشرنا جدول بأسماء أعضاء المجلس العقداني الذين انتخبوا من قبل الجماهير الشعبية.. الذي سنوردها في الآخر هذا مع العلم إن كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية -كما وضحنا ذلك- بيد المجلس العقداني المنتخب. فأي وراثية هذه الذي يتشبث بها بعض الكتاب؟

ب- الوضع الاجتماعي:

إن جذرية التحولات -الاقتصادية والاجتماعية والسياسية- التي مارستها القيادة القرمطية الثورية على بنية المجتمع. أدت إلى استئصال للنواميس والمؤسسات الاجتماعية العفنة والمعيقة لمسار التحول الثوري- داخل بنية المجتمع- خالقه بذلك مؤسسات وتقاليد ثوريين منسجمة مع التغير الجذري للبنية الاقتصادية. ويتضح ذلك من خلال تعرضنا للوحة الاجتماعية الجديدة.

1- القاعدة الاجتماعية للنظام:

عرف تاريخياً- أن الحركة القرمطية التي ظهرت في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري- ثبتت جذورها وانتشرت في صفرف الطبقات المضطهدة والفئات الشعبية الأخرى، ويذكر لنا المؤرخ الطبري، بأن أحد القواد العباسين أسرف في قتل القرامطة في وسط العراق "فخاف على الزرع لأنهم كانوا عماله وفلاحيه"[1] أما نشاط فرع القرامطة في بلاد البحرين (الاحساء، القطيف، البحرين الحاليه) فإنهم أيضاً ركزوا في بث أفكارهم الثورية هذه ضمن وسط الطبقات المضطهدة والمتضررة من

---

[1] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

سياسة الدولة العباسية – كما وضحنا ذلك في الفصل الأول – ويصف لنا المقريزي هوية الأشخاص الذين استجابوا إلى دعوة أبو سعيد الجنابي فيقول "وأول من أجابه الحسن بن سنبر- الذي أصبح فيما بعد رئيساً للمجلس العقداني- في قوم ضعفاء ما بين قصاب[1] وحمال وأمثال ذلك" ونستنتج من استشهادنا بالمقريزي. أن الحرفيين أول من انضم إلى صفوف الحركة السياسية هنالك. وعندما سيطر القرامطة على السلطة السياسية هنالك. عمقوا القاعدة الشعبية للنظام، لتصبح السند الرئيسي والأساسي التي يرتكز عليها النظام في الداخل والدرع الواقي للثورة ضد كل الأعداء الطبقيين. إن أبرز الإجراءات الثورية التي طبقها القرامطة بهذا الصدد. تتضح من خلال المقريزي الذي استشهدنا به مراراً فيقول "وجمع الصبيان في دور وأقام عليهم قوماً وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ونصب عليهم العرفاء وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان وصارت دعوته طبعاً لهم."[2] - خط التشديد لنا -.

إذن الحكم القرمطي الثوري لم يكتف بتعليم الجماهير الشعبية فن الفروسية وحسب. بل أغرس في أذهانهم منذ الصغر الإيديولوجية القرمطية الثورية.

من هنا تكمن سر عظمة القرامطة واستمرار نظامهم الثوري قرابة القرنين من الزمن.

---

[1] ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص22.

[2] ناصر خسرو، "سفر نامة"، الطبعة الأولى، ص93.

2- طبيعة العلاقات الاجتماعية:

لقد انتفت- داخل المجتمع القرمطي- كل العلاقات الطبقية العفنة السائدة في داخل المجتمع العربي- الإسلامي. سواء علاقات إقطاعية أم عشائرية أو بقايا علاقات عبودية. كما أخذت بالاضمحلال أيضاً التقاليد والأعراف الغائمة على تلك العلاقات الطبقية. وسادت داخل المجتمع القرمطي علاقات وتقاليد ثورية تمثل بحد ذاتها تقاليد وعلاقات القوى الاجتماعيه الجديدة الصاعدة وصاحبة المصلحة الاقتصادية في التغيير الاجتماعي. أما علاقة القيادة السياسية بالجماهير فهي علاقة التأثر والتأثير المتبادل الخلاق- ويصف لنا ابن حوقل الذي زارهم- سلوك أعضاء المجلس العقداني فيقول "إن شيوخهم يتصرفون بغاية التواضع"[1].

وتتضح العلاقة الجدلية أكثر بين الشعب وقيادته السياسية من خلال استشهادنا بالرحالة ناصر خسرو الذي زار القرامطة بعد ابن حوقل بسنين عديدة ويؤكد من جديد ما ذكره ابن حوقل. يقول ناصر خسرو "وحينما يستقبل أحد المسؤولين الناس فإن الذين يخاطبونه يسمعون منه بدورهم إجابات كلها رقة وتواضع"[2].

3- التربية الثورية:

"إذا كان القرامطة في ألف فإنهم يهزموا مائة ألف" أبن الاثير، تتضح عمق التربية، ونوعية الإنسان القرمطي الذي صهرته هذه التربية من خلال الصورة التالية:

---

[1] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

[2] ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، الجزء السابع، ص68.

1 – **تربية الأطفال منذ الصغر:**

لقد طرح القرامطة– لأول مرة– طريقة علمية ثورية للقضاء على الفكر الرجعي وتأثيراته المتبقية. وذلك بأخذ الأطفال من سن الرابعة فما فوق وتربيتهم تحت الإشراف المباشر للدوله القرمطية "وأخذ الصبيان إلا أن يكون دون الأربع سنين سواء عبداً أو أمه أو حراً"[1] إن هذا الأسلوب الثوري في غرس الإيديولوجية القرمطية الثورية أعطى استمرارية للفكر القرمطي لقرون عديدة.

2 – بفعل تلك التربية الثورية منذ الصغر لم نلمس خلال اطلاعنا على التجربة القرمطية على أي انحراف أو تفسخ دب في جسم المجتمع القرمطي. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى درجة الوعي الثوري عند الجماهير الكادحة لقضاياها طبقية وكيفية الحفاظ على تلك المكاسب الطبقية. من خلال رصدها الدقيق إلى مواقف وسلوك قادتها السياسيين.

3 – من خلال المواقف الجريئة الشجاعة التي ضرب بها المثل في التاريخ حتى قبل "إذا كان القرامطة في ألف فإنهم يهزمون مائة ألف"[2] وهذا دليل قاطع على أفكار الجماهير لذاتها في سبيل الحفاظ على مصالحها

انطبقية من خلال حفاظها على النظام لقرمطي، ومن تفحص كل حروب القرامطة مع أعدائهم الطبقيين لخرج نسبة معينة، تساوي تقريباً 1/ 15 نسبة القرامطة الى أعدائهم. فأبو سعيد الجنابي يهزم "سبعة آلاف"[3]. وقيل عشرة آلاف وكان مع أبو سعيد الجنابي "سبعمائة رجل"[4]

(1) المسعودي "التنبيه والإشراق"، ص341.

(2) المسعودي "التنبيه والإشراق"، ص341.

(3) ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الجزء السابع، ص83.

(4) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص22.

وأبو طاهر – كما وضحنا سابقاً– يهزم أكثر من ثمانين ألف ومعه ألفين وسبعمائة– وأبو بكر شاهويه" يحتل الكوفة ومعه ألف رجل"[1].

4– انعدام الابهة:

إن التربية والسلوك الثوريين للقادة والجماهير لم تفسح المجال ضمن وسطهم الاجتماعي لبروز أي مظهر للأبهة في حياتهم اليومية سواء في المسكن أو الملبس أو في احتفالاتهم، تلك المظاهر التي تبرز بشكل واضح وجلي عند أعدائهم سواء العباسيين أو الفاطميين أو الأمويين في الأندلس، ومدى مظاهر البذخ والأبهة في اقتناء التصور الضخمة والجواري والملابس الموشحة بالذهب.. الخ.

أما القرامطة فقد حاربوا بدون كلل كل مظهر من تلك المظاهر الطبقية التي تقوم على حساب قوت الشعب من جهة وتنذر بتفسخ النظام الاجتماعي من جهة أخرى. لذا لم يذكر لنا التاريخ – لا مؤرخوه ولا الآثار– على وجود أي مظهر من تلك المظاهر في جمهورية القرامطة، كما أن بيوت القادة مثل عامة الشعب ويرتدون في المناسبات زي موحد ويقول ابن جوقل "ولباسهم البياض لا غير"[2].

5– أعياد القرامطة:

باعتبار الدولة القرمطية دولة علمانية جدلية– أي ملحدة– فإن موقفها تجاه الأديان بشكل عام واضح ومعروف لدى الجميع.

---

[1] ناصر خسرو، "سفر نامة".

[2] ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص22.

لذا لم تقم الدولة القرمطية أي وزن أو اهتمام للاعياد التقليدية- عيد الفطر- عيد الاضحى- ولا المناسبات الدينية- المولد النبوي- فقد ألغيت جميع مظاهر هذه الأعياد والاحتفالات الدينية داخل المجتمع القرمطي، كما أنه غير مسموح بأي مظهر من مظاهر النوح والبكاء في أيام "عاشوراء".-

أما عن نوعية احتفالات القرامطة بأعيادهم. فإننا لا ننسى تلك المظاهر الطبقية الصاخبة على غرار الدولة العباسية والفاطمية فهاتان الدولتان تظهران بمناسبة الأعياد الدينية، الموائد الطويلة! وعليها أنواع مختلفة من المأكولات. ليقتات- بعد ذلك- الشعب الكادح على فضلات موائدهم! فالجماهير الشعبية في بلاد البحرين لا

تقتات على موائد مضطهديها حتى تهتم بمثل هذه المناسبات. فلقد حققت عبر نضالها المرير غايتها المنشودة على الأرض. حققت فردوسها، وبذلك أصبحت الأيام كلها بهجة ومسرة كلها أعياد، تلك الفردوس أو الجنة التي أزرها ناصر خسرو فقال عنها "لم يبق في البلد فقير"[1].

لذا لم نرى المؤرخين يذكروا لنا أعياد القرامطة- على الرغم من الزائرين: المعاصرين للدولة القرمطية- وهذا ما يجعلنا نستنتج أن القرامطة يحتفلون بأعيادهم- عيد الثورة وعيد النيروز- بكل بساطة وتواضع، وهنالك إشادة واحدة فقط دونت لنا، ألا وهي إشارة ابن حوقل الذي زارهم فيقول "ومن رسمهم أن يركب مشايخهم وأولادهم فرادى فيجتمعون بموضع يعرف بالجرعاء قبلي الإحساء ويلعب

---

[1] يوليوس ولهوزن "تاريخ الدولة العربية"، ص94.

أحداثهم بالرماح على الخيول وينصرفون أفراداً بغاية التواضع ولبسهم البياض لا غير"[1].

6- الهدوء والاستقرار:

لم تشهد بلاد البحرين طيلة فتراتها التاريخية أي نوع من الاستقرار السياسي. بفعل الظلم الطبقي الجاثم على صدر الجماهير الكادحة هنالك.

فلقد عرفت تاريخياً هذه المنطقة بأنها بيئة صالحة لانتشار الحركات المناوئة لسياسة السلطة المركزية، منذ بزوغ الإسلام ابتداء من ثورة "37هـ[2] أيام عثمان بن عفان مروراً بثورة "نجدت والعيدي ومسعود ثم ثورة علي بن محمد"[3]. قائد ثورة الزنج وأخيراً القرامطة.

لذا لم تستقر الأوضاع السياسية في بلاد البحرين في مجمل تاريخها النضالي الطويل إلا في فترة حكم القرامطة. الذي تميزت به عن كل عهودها السابقة واللاحقة. وهذا يدل على مدى صدق وإخلاص القرامطة في التجسيد الفعلي لكل الطموحات الطبقية المشروعة للجماهير الكادحة لذلك لم يسجل لنا التاريخ، أي مظهر من مظاهر الاستياء الشعبي على السلطة القرمطية ولم يبرز ضمن وسطهم مجموعة تحاول التآمر على النظام الثوري القرمطي.

وإلا فهذه فرصة المؤرخين الرسميين للتأكيد على افتراءاتهم وطعنهم للتجربة القرمطية.

---

[1] محمد سعيد المسلم "تاريخ الذهب الأسود".

[2] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة"، ص99.

[3] محمد عبد الله عنان "دولة إسلامية شيوعية"، مجلة الكاتب المصرية، نوفمبر 1945.

7- موقف القرامطة من المرأة:

لقد ركز قرامطة العراق. منذ بداية عملهم النضالي، على هذا الكائن الذي تجسدت فيه كل أصناف الاضطهاد الطبقي وعسف التقاليد الاجتماعية. وقد لمس قادة القرامطة في العراق فورة التجاوب والتفاعل عند المرأة، حيث أظهرت مقدرة فائقة على مستوى الانضباط والتفاني في سبيل بناء الحركة الثورية القرمطية الوليدة.

فقد كانت تدفع اشتراكها الشهري "خمس ما تغزله"[1] أسوة بالرجل وساهمت في الحملات النضالية ضد أعدائهم الطبقيين كما ذكر لنا ذلك ابن الاثير وغيره من المؤرخين.

وتسلقت سلم المراتب التنظيمية عبر مقدرتها وكفائتها. فلا عجب أن تكون أحد المناضلات الأوائل -اللواتي، انخرطوا في صفوف الحركة القرمطية في وقت مبكر- أن يكون بها الأثر الكبير على التأثير في كسب المناضل الكبير عبدان الذي أصبح بعد فترة قصيرة العقل المفكر للحركة القرمطية لكافة فروعها.

ومن أراد الإطلاع على دور المرأة البارز في الحركة القرمطية في العراق وقيادة "مجتمع الألفة" الذي أنشأه حمدان قرمط وعبدان في مدينة الكوفة، فمن المفيد قراءة رواية " الثائر الأحمر"[*] للكاتب اليمني أبا كثير، التي ترسم صورة دقيقة لوضع المرأة في المجتمع القرمطي في العراق.

---

[1] د. الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص27.

[*] في هذه الرواية معلومات تاريخية عن وضع المرأة في المجتمع القرمطي، بغض النظر عن وجهة نظر الكاتب.

وضع المرأة في المجتمع القرمطي في بلاد البحرين:

مثلت الحركة القرمطية في بلاد البحرين (القطيف، الإحساء، البحرين الحالية) الفرع الأمين للمبادئ الثورية التي أرسى قواعدها حمدان وعبدان.

اعتبر أبو سعيد الجنابي من أبرز وألمع تلامذتها، فلقد استوحى المبادئ العامة في بناء المجتمع القرمطي في بلاد البحرين من التجربة الغنية لقرامطة العراق في مدينة الكوفة.

فكانت المرأة في بلاد البحرين "يسمح بالانتظام في سلك الدعوة والتدرج بمراتبها"[1]. وقد شرع أبو سعيد الجنابي - عند نجاح الثورة القرمطية - بسن قوانين الأحوال الشخصية، التي تؤكد على مساواة المرأة بالرجل في كافة المجالات. وأن تأخذ حريتها كاملة ولا رقيب عليها غير المصلحة العامة.

وأهم الخطوات التي طبقها القرامطة بهذا الصدد:

1 - تحديد الزواج بواحدة فقط.

2 - إعطاء المهر.

2 - حق المرأة في العمل.

4 - تعليم المرأة.

5 - حق المرأة بالطلاق.

---

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

6-- حقها برفض الزواج بتاتاً.

7- إعفاء المرأة من الأعمال الشاقة التي تنفرد بها. لذا أقامت الحكومة للنساء المطاحن للحنطة على قوة الماء ويفسر الدكتور الدوري يقول "بأنها تخفيف لأعباء النساء.."[1].

وبهذه المناسبة نورد الرواية الشعبية التي يتحدث بها.سكان مدينة "الإحساء" هذا اليوم وقد سمعناها مراراً ألا وهي "رحمه الله أبا الطاهر القرمطي. -زوج في يوم واحد عشرة آلاف فتاة وعشرة آلاف فتى..".

ومن يمعن في دراسة المجتمع القرمطي. يستنتج إن هذه الحادثة واقعة فعلاً للأسباب التالية:

1- تقوم الحكومة القرمطية على عاتقها بتربية الأطفال "من سن الرابعة فما فوق"[2].

2- إن دور التعليم التي أنشأتها الدولة القرمطية كما ذكر المقريزي. مختلطة بين الفتيات والفتيان فلا عرابة

في الأمر أن يكون هؤلاء الشبان والشابات قد اختار كل واحد منهم -أو تختار- شريك حياته.

3- تقوم الدولة القرمطية -كما هو معروف ببناء وإصلاح البيوت "على مسؤولية الحكومة[3]، لذا حددت السلطة القرمطية يوم معلوم لزواج هؤلاء لتوفر لهم السكن المجاني من جهة وتهدف من وراء هذا الاحتفال الكبير بأن يضرب به المثل- الذي ظل عالقاً في أذهان سكان القرى في الإحساء إلى هذا اليوم- تتردى أصدائه في أرجاء الإمبراطورية العباسية

---

[1] ناصر خسرو، "سفر نامة".

[2] د. ضياء الدين الريس "الخراج والنظم المالية"، ص523- 524.

[3] قدامة بن جعفر الكاتب "الخراج والصنعة"، ص239.

على ما تقوم به الحكومة القرمطية من اهتمام بالغ في سعادة وترفيه مواطنيها من جهة ثانية.

ج- الوضع الاقتصادي:

يطرح البعض عن أن استقلال بلاد البحرين- في عهد القرامطة- عن جسم الإمبراطورية العباسية أمر لم تعره الخلافة العباسية- بادئ الأمر- أي أهمية لما تمثله هذه المنطقة من قلة في مواردها الاقتصادية والتجارية.

1 - إن هذا الحكم الخاطئ والحاقد المجافي للحقيقة والواقع.. تفنده الأدلة المادية التالية:

1 - تعتبر بلاد البحرين من اخصب مناطق شبه الجزيرة العربية.

2 - تحتل بلاد البحرين- من حيث بهاضه وكثرة الضرائب والخراج - الدرجة التاسعة ضمن قائمة المدن والبلدان التي تدفع الخراج للدولة العباسية وعددها "ثلاث وأربعين بلداً ومدينة"[1].

3 - إن مقدار الخراج الشهري لبلاد البحرين. كما أرخ لنا ذلك قدامه بن جعفر سنة 237هـ بمبلغ وقدره "خمسمائة ألف دينار"[2] وبذلك يكون خراج هذه المنطقة أكثر من خراج "دمشق، والبصرة، والكوفة، وأرمينيا.. الخ"[3].

---

[1] الدكتور الريس "نفس المصدر.

[2] د. الدوري "مقدمة في التاريخ العربي"، ص74.

[3] محمد عبد الله عنان "دولة إسلامية شيوعية"، مجلة الكاتب المصرية، نوفمبر 1945.

4- الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة التي تربط سواحل المحيط الهندي بالخليج العربي، وما تتمتع به من شهرة عالمية من تجارة اللؤلؤ الذي يستخرج من سواحلها.

5- ازدياد وتضاعف الخراج والضرائب على الجماهير الفلاحية والحرفية خلال الفترة الزمنية الواقعة ما بين سنة 237هـ حتى قيام ثورة القرامطة سنة 286هـ. وهذا ما جعل لهذه المنطقة خاصية بارزة- كما وضحنا ذلك في الفصل الأول- بأن تكون أرض خصبة لانتشار الحركات الثورية بمنطقتها.

وعندما سيطر القرامطة على هذه المنطقة بادروا منذ الوهلة الأولى بهدم البنية الاقتصادية الطبقية للنظام العباسي وانتهجوا سياسة اقتصادية تحقق الطموحات المشروعة للجماهير الكادحة وأهم الإجراءات الثورية للقرامطة في المجال الاقتصادي- كما حفظ لنا التاريخ- ما يلي:

1- إلغاء الملكية الخاصة:

لم يقف القرامطة عند "إلغاء الإقطاع والرق"[1] بل تخطت الفلسفة الاجتماعية القرمطية هذه الإجراءات. واجتثت الملكية الخاصة من جذورها. باعتبار أن هذه الملكية في نظر الإيديولوجية القرمطية، منبع كل الشرور الاجتماعية "لذا قضى القرامطة على الملكية الخاصة."[2] ويصف لنا المقريزي سيطرة الدولة على كل شيء فيقول "وقبض كل مال في البلد والثمار والحنطة، والشعير... الخ"[3].

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

(2) د. الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة".

(3) د. الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة".

2 – سيطرة الدولة على التجارة الخارجية والداخلية"[1].

3 – قيام مزارع الدولة كما ذكر ذلك ابن حوقل وناصر خسرو. ويفسر الدكتور الدوري ذلك فيقول "لتوفير الدخل للميزانية لتقوم بخدماتها الاجتماعية"[2].

4 – سيطرة الدولة على المواشي والمراعي يقول المقريزي "وأقام – يعنى أبو سعيد الجنابي – رعاة للإبل والغنم ومعهم قوم لحفظها والتنقل معها على نوب معرفة"[3].

مجتمع اكتفاء ذاتي:

إن الإيديولوجية القرمطية بما مثلت من طرح متقدم – في التحليل المادي للمجتمع والأسباب الرئيسية. للاضطهاد الطبقي والطريق الثوري لمعالجة هذا الاضطهاد – متجاوزاً بذلك كل الإيديولوجيات السائدة في عصرهم، وما مثله هذا الطرح من جانب ثان من عداء مستعصي من قبل القوى الرجعية ثم الطبقية تجاه هذه التجربة الثورية الوليدة.

لذا انتهج القرامطة في سياستهم الاقتصادية على الاكتفاء الذاتي للمجتمع. فالدولة القرمطية مكلفة إذن أمام هذه الظروف على إنتاج كل

---

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

(2) للمقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص164.

(3) ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الخامس، ص203، أبن المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الثالث، ص336.

ما يحتاجه البلد من الحاصلات الزراعية أو المنتوجات الصناعية. وقد قامت الدولة القرمطية فعلاً بتوفير كل احتياجات المجتمع من المنتوجات الزراعية والصناعية.

وبذلك قضت على أي نشاط تجاري مع جيرانهم وأنقذت اقتصاد البلد من التأثر بالاقتصاد السياسي. ويصف لنا المقريزي بدقة متناهية مدى سيطرة الدولة على الإنتاج وسد حاجات البلد من هذه المنتوجات فيقول "ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله ويدفعه إلى من ينسجه عبياً وأكسيه حرائر وجوالفات. ويفتل منه الحبال يسلم الجلد إلى الدباغ ثم خرازي الحرب والروايا والمزاد، وما كان يصلح حلا وخفا ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن"[1]- بقصد خزائن الدولة.

كما أن المؤرخين لم يذكروا لنا إطلاقاً على أن القرامطة استوردوا بعض المنتوجات الزراعية أو الصناعيةز وإنما الشيء الوحيد الذي استورده القرامطة فقط هو الحديد. فقد استورده القرامطة "من سيف الدولة الحمداني سنة 353هـ"[2].

د- سياسة الدولة في المجال الصناعي والزراعي:

نحاول هنا التطرق – ولو بشكل سريع – إلى سياسة الدولة في المجالين الزراعي والصناعي. تلك السياسة التي لم تجعل كل موارد البلد بيد الدولة فحسب. بل رفعت من مستوى الإنتاج الزراعي والتقنية الصناعية بحيث تشهد بلاد البحرين طيلة فتراتها التاريخية مثل هذا الازدهار الاقتصادي.

---

[1] د. الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص27.

[2] ناصر خسرو، "سفر نامة"، الطبعة الأولى، ص92.

1- سياسة الدولة في المجال الصناعي:

لم نلمس من خلال إطلاعنا على تاريخ الدولة الإسلامية - في العصر الوسيط - اهتماماً بالغاً في سبيل التطوير الصناعي. مثل ما قامت به الدولة القرمطية العلمانية" فقد اتخذت هذه الدولة إجراءات علمية في هذا المجال. مما حقق صناعة متطورة على جيرانهم، وسدت حاجة البلد من هذه المنتوجات كما وأنها أخذت تصدر بعض هذه المنتوجات إلى البلدان المجاورة، كما ذكر لنا ناصر خسرو. وأهم الإجراءات التي اتخذتها الدولة القرمطية في هذا المجال هي:

1- إنشاء بنك صناعي:

إن أول بنك صناعي يقام في التاريخ العربي - الإسلامي في العصر الوسيط هو البنك الذي أقيم في الجمهورية القرمطية. فقط انطلق القرامطة - بنظرة حضارية أسدل التاريخ على كثير من جوانبها - بضرورة تطوير الصناعة والاستفادة من خبرات الفنيين - المهملين المتواجدين في أرجاء الدولة القرمطية "بإنشاء هذا البنك"[1]. لجذب الصناعيين الفنيين المتواجدين هناك. يقول ناصر خسرو "كل غريب يصل إلى الإحساء ممن يملك صنعة ما توفر له الدولة الأدوات الضرورية ويسدها بدون فائدة"[2].

---

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص180.

(2) محمد سعيد المسلم "ساحل الذهب الأسود"، ص76.

2- الاستفادة من أسرى الحرب الفنيين:

تبرز الأدلة على مدى اهتمام القرامطة في المجال الصناعي وتطويره بقدر الإمكان من خلال موقفهم الرائع تجاه الأسرى الفنيين والاستفادة منهم.

فالقرامطة في حروبهم الكثيرة مع أعدائهم ينقلون معهم أسرى الحرب الفنيين ويكرمونهم في بلدهم هذا الموقف نفسه، اتخذته الدول الكبرى أثناء الحرب العالمية الثانية، يقول المقريزي "عزل الحمالين والصناع ناحية"[1]. ويؤكد ذلك محمد سعيد المسلم "فكانوا في حروبهم لا يبقون على أحد عدا الفنيين من المهرة وأرباب الصناعة فإنهم يحتفظون بهم ويحملونهم إلى بلادهم"[2].

ب- سياسة الدولة في المجال الزراعي:

لم تقف الدولة القرمطية عند القضاء على الإقطاع "وتوزيع الأراضي على الفلاحين الفقراء"[3] بل وضعت خطة لتطوير الإنتاج الزراعي وأبرز سمات تلك الخطة:

1- إنشاء بنك زراعي:

إن الاهتمام البالغ الذي أولته الحكومة القرمطية تجاه الفلاحين لا يتمثل بإلغاء الضرائب والعشور"[4] عن الفلاحين فحسب بل "أقامت

---

(1) د. الدوري "مقدمة في التاريخ العربي"، ص74.

(2) ناصر خسرو، المصدر السابق.

(3) ناصر خسرو، المصدر السابق.

(4) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص21.

البنط الزراعي"[1] لتشجيع الزراع الفقراء ودفعهم لاستغلال الأرض وزراعتها وذلك من خلال تسليفهم ما يحتاجون إليه.

2- قيام شبكة تصريف المياه:

اشتهرت الإحساء بوفرتي مياهها العذبة وكثرة عيونها الغزيرة ولقد استفاد القرامطة خير استفادة من وفرة المياه هذه لتوسيع رقعة الأراضي الزراعية فشقوا الترع والأنهار الصغيرة لري المزارع والنخيل بطريقة علمية أدهشت الرحالة ناصر خسرو وذلك بان الحكومة القرمطية قامت بحفر أربعة أنهر رئيسية لسقي أراضي الزرع. يقول ناصر خسرو "والعجيب أن هذه الأنهار الأربعة لا تخرج من سور المدينة"[2].

3- قيام مزارع الدولة:

بجانب ملكية الفلاحين الفقراء. هنالك ملكية الدولة للأرض التي سيطرت عليها وانتزعتها من أيدي الإقطاعيين. كما أنها وسعت رقعتها الزراعية لسد حاجات البلد من المنتوجات الزراعية. ويقدر ابن حوقل دخل الدولة القرمطية من هذه المزارع "بثلاثين ألف دينار"[3] وهو مبلغ زهيد. لأن الدولة معظم ما تنتجه يوزع مجاناً على الشعب كالحنطة مثلاً التي ذكرها ناصر خسرو "وتملك الحكومة المطاحن لطحن الذرة إلى دقيق ويوزع للأفراد دون مقابل"[4].

---

(1) ناصر خسرو، المصدر السابق.

(2) ناصر خسرو، المصدر السابق.

(3) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

(4) ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثاني، ص60.

مستوى المعيشة: "لم يبق في البلد، فقير".

لقد أدت الإجراءات الثورية في المجال الاقتصادي – القضاء على الإقطاع والاحتكار، إنشاء بنك زراعي وصناعي، إلغاء الضرائب والعشور..الخ – إلى القضاء بشكل واضح على البطالة والفقر في داخل المجتمع القرمطي.

ويصف لنا ناصر خسرو مدى الازدهار والرخاء الذي يعم المجتمع القرمطي فيقول "توجد التمور بكميات كبيرة لدرجة أنها تعطى للحيوانات لتسمينها وفي بعض الأوقات يباع أكثر من ألف من المن وزن يستخدم في الخليج العربي – بدينار" ثم يواصل وصفة للازدهار الاقتصادي في الجمهورية القرمطية فيقول "لم.. يبق في البلد فقير"[1].

ويصف لنا بنلي جوزي مستوى ذلك الازدهار فيقول "إن مالية بلاد البحرين بلغت في عهد القرامطة درجة لم تبلغها على ما أظن في دور آخر من أدوار تاريخها."[2].

الميزانية والنظام الصيرفي والعملة:

يعتبر الخراج والجزية – على أهل الذمة – والضرائب الأخرى العماد الرئيسي والأساسي لميزانية الدولة الإسلامية طيلة فترات تاريخها ابتداءاً من دولة الخلفاء الراشدين وانتهاءاً بالدولة العثمانية، لذا نرى أن انتفاضات الجماهير الكادحة الواسعة التي عمت أرجاء الإمبراطورية الإسلامية يرجع إلى هذا الاضطهاد الطبقي والديني، أما ميزانية

---

(1) ابن الجوزي "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، الجزء السادس، ص296.

(2) ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص21.

القرامطة. فلم تتم على هذا الأساس إطلاقاً - كما وضحنا ذلك سابقاً وبدأت ببحث عن مصادر لميزانيتها بعيدة كل البعد عن أي نوع.

ومن أنواع الاضطهاد الطبقي والديني للجماهير وأهم موارد الميزانية القرمطية الآتي:

1- ضريبة على كل حاج دينار[1]. وقيل "ضريبة على كل جمل خمسة دنانير والجمل المحمل سبعة دنانير"[2].

2- ضريبة على البواخر التي تمخر الخليج العربي[3].

3- ضريبة على الخليفة العباسي وقدرها مائة وعشرون ألف دينار[4].

4- ضريبة على كافور الأخشيدي وقدرها ثلاثمائة ألف دينار[5].

5- ما يغنمه القرامطة من أعدائهم في الحروب وقد ذكر كثير من المؤرخين وحجم الأموال الهائلة التي اغتنمتها القرامطة من أعدائهم.

6- الدخل القائم من صادراتها الصناعية (كالفوط والقراطيس) التي تصدر إلى البصرة ومناطق أخرى"[6].

نظام العملة "النقد":

لقد أدرك القرامطة ضرورة الحافظ على مواردهم المالية وعدم تسرب أموالهم إلى الخارج. فعلى الرغم من سيطرة الدولة على التجارة الخارجية

---

(1) بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام".

(2) أبي المحاسن "النجوم الزاهرة"، الجزء الرابع.

(3) ناصر خسرو، "سفر نامة".

(4) ناصر خسرو، "سفر نامة".

(5) ناصر خسرو، "سفر نامة".

(6) د. محمد حسين الزبيدي "التنظيمات الإدارية والاجتماعية في الكوفة".

والداخلية – ضربوا نوعاً من النقود. وقف عندها كثير مـن المستـشرقين- ومحبي المعرفة – باندهاش وتعجب عظيمـين وضرب القرامطـة نفـوذهم مـن الرصـاص الـرخيص. وهـذه العمليـة تـدل عـلى عقليـة حـضارية اقتصادية- أسدل التـاريخ كثـير مـن جوانبهـا- لقـد كـان لهـذا الإجـراء الضروري مدلولاته العملية التالية:

1 – منع تسرب أموالهم إلى الخارج. اعتبار هذا النـوع مـن النقـود لا قيمة له خارج الدولة القرمطية. نظراً لعدم الاعتراف به من قبـل البلـدان المجاورة. وكذلـك إن القرامطة – كما يقول ناصر خسرو "يمنعون تصدير هذه النقود"[1].

2- إن ضرب عملـة محليـة لـذو مغـزى اقتـصادي عميـق. وذلـك بإخراج اقتصاد البلد من التبعية للاقتصاد العباسي من جهة، وعـدم تـأثر سوق البلد بذلـك الاقتصاد- أي العباسي- من جهة أخرى.

3- إن النقود هذه ما هي إلا رمزية للتداول بين أفـراد الـشعب. لأن السلطة القرمطية تتحمل نفقات كل الحاجات الضرورية للمـواطنين مـن سكن وخبز ولحم وإصلاح البيوت... الخ.

4- إن هذا الإجراء الثـوري لـه مـردوده عـلى المستوى الأخلاقـي. وذلك بغرس الروح المعنوية في المبادرة لتطوير الإنتاج من جهة والقـضاء التدريجي على هذه المادة (النقد) من جهة ثانيه.

---

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

النفقات:

خصصت الدولة القرمطية جزء كبير من ميزانيتها العامة للنفقة سواء في المجال الإنتاجي أو غير الإنتاجي (خدمات عامة) كيف لا؟ وهو نظام جاء أساساً لتحقيق رفاهية المواطن وسعادته. وأهم نفقات الدولة هي:

1 - نفقات خدمات:

تبذل الدول القرمطية، نفقات كبيرة في مجال الخدمات العامة. سواء خدمات اجتماعية أو صحية أو إدارية.

وأهم نشاط تلك النفقات:

1 - بناء البيوت وإصلاحها:

"تقوم الدولة القرمطية، على عاتقها ببناء البيوت للمواطنين، كما أن إصلاح هذه البيوت على مسؤولية الحكومة"[1].

2 - بناء وترميم الحمامات:

لقد كانت الحمامات - التي اشتهرت بها الإحساء منذ القدم إلى اليوم بمياهها الساخنة - وقفا على الأثرياء الذين يملكونها. وكانت بعض الحمامات في الكوفة والبصرة في عهد الدولة الأموية والعباسية تدخل يومياً "ألف درهم"[2] أما الحمامات في عهد القرامطة فقد كانت مجاناً.

3 - تربية الأطفال:

تقوم الحكومة القرمطية على عاتقها بتكاليف "إنشاء دور لتربية الأطفال من سن الرابعة فما فوق وإجراء ما يحتاجون إليه"[3].

---

(1) المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

(2) ناصر خسرو، نفس المصدر.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ص161.

4- توزيع القمح مجاناً:

تمتلك الدولة مساحات واسعة من أراضي زراعة "الحنطة، والشعير، والثمار وكانت الدولة توزع الحنطة مجاناً"[1].

5- تربية المواشي:

تقوم الدولة على عاتقها بتربية المواشي وما يتبعه في هذا المجال وفي بعض الأحيان- وربما بشكل دائم- توزع الحكومة اللحوم مجاناً يقول المقريزي "وأقام رعاة للإبل والغنم ومعهم قوم لحفظها والتنقل معها على نوب معروفة وإن الشاة إذا ذبحت يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم"[2]. أي من تخصص لهم.

2- نفقات الإدارة:

تتحمل الدولة كافة نفقات الإدارة سواء من موظفين أو عمال أو عوائل الشهداء. كما تتحمل على عاتقها نفقات الجيش.. الخ.

النفقات المنتجة:

إن نفقات الدولة في هذا المجال له مردوده- الإنتاجي سواء على صعيد المجال الزراعي أو الصناعي.

ففي المجال الزراعي تبذل الدولة القرمطية أموال ضخمة في "استصلاح أراضي الزرع وأصول النخل"[3].

---

[1] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص164.

[2] ناصر خسرو، "سفر نامة"، ص92.

[3] ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثاني، ص57، المسعودي "التنبيه والإشراق"، ص342.

وشق الترع ودفع أجور العمال الزراعيين- هنالك ثلاثين ألف عامل زراعي فقط في الإحساء يشتغلون في أراضي الدولة[1]- وقيام بنك زراعي لتسليف الفلاحين وتشجيعهم على استثمار الأرض. أما في المجال الصناعي فإن الدولة كذلك تتحمل كافة نفقات هذا المجال. على أساس تطوير الصناعة من جهة، وتوفير كل ما يحتاجه البلد. من هذه الصناعة – منسوجات أدوات مهنية.. الخ- من جهة ثانية كما أنها تدفع أجور العمال الحرفيين الذين يشتغلون في ورش الدولة ونفقات الصيانة. وقامت بإنشاء بنك صناعي لتطوير صناعة البلد من خلال جذب الفنيين الصناعيين المتواجدين في أقطار أخرى وتوفر لهم كل ما يحتاجون إليه إطار الجمهورية القرمطية.

ملاحظة هامة:

لم نتعرض في دراستنا- الفصل الأول والثاني- إلى الجانبين الفكري لدى القرامطة وطبيعة المناخ الذي أفرز هذا الفكر. كما أننا لم نتناول- بعد- بالبحث التحليلي طبيعة الثورة القرمطية كدولة، مجتمع، رؤية. إنسانية ضمن التاريخ وهذا ما سوف نتطرق إليه في الفصل القادم.

جدول بأسماء أعضاء المجلس العقداني "الشعبي":

مثل المجلس العقداني "الشعبي" المنتخب من قبل الجماهير الشعبية في الجمهورية القرمطية "العلمانية".

السلطة المركزية في البلد فهو الذي تنصر في يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وبهذا يكون هو المخطط والمسيس للبلد كما أنه من جانب ثان يصوغ البرامج الفكرية والثقافية المستوحاة من

---

[1] ابن مسكويه "تجارب الأمم"، ص333.

تراث الفكر القرمطي الثوري ونشرها بدون كلل في صفوف الجماهير الشعبية. ونحن هنا نحاول نشر بعض أسماء المجلس العقداني لفترة تتراوح ما بين 287هـ- 378هـ. أما بعد هذا التاريخ إلى سقوط الدولة القرمطية سنة 467 فلم يؤرخ لها – أي من المؤرخين- أسماء أعضاء المجلس العقداني حتى الرحالة ناصر خسرو – مع الأسف الشديد الذي زار القرامطة سنة 443هـ. لم يذكر لنا أسماء هؤلاء بل اكتفى بذكر ست أعضاء يحكمون ويساعدهم ستة أشخاص احتياط.

أعضاء المجلس العقداني الأوائل:

1 – أبو سعيد الجنابي – مؤسس الدولة والقائد العام- قتل غدراً سنة 30 هـ[1].

2 – الحسن بن سنبر.

3 – حمدان بن سنبر 30هـ.

4- علي بن سنبر 30هـ.

هؤلاء الأخوة أول من استجابوا إلى حركة القرمطية كما ذكر المقريزي السعودي. والسبب في قتلهم أن غلاماً صقلياً أسر في إحدى المعارك وقد أعدموه القرامطة ويقال أنه لم ير قط أبو سعيد الجنابي ولا **أعضاء المجلس العقداني يصوموا أو يصلوا لقتلهم، والأصح أنهم قتلوا عبر دسيسة من عبيد الله الفاطمي.**

5- محمد بن اسحاق قتل غدراً سنة 3هـ.

6- سليمان الجلي قتل غدراً سنة 31هـ.

---

[1] ابن حوقل "المسالك والممالك"، ص21.

أعضاء مجلس العقداني من سنة 301هـ:

1- الحسن بن سنبر رئيس المجلس العقداني.

2- معاذ بن الإعرابي قائد عام.

3- سليمان الجلي. الذي وصفه المسعودي أثناء لقائه به سنة 318 هـ "بأنه لم يرى مثله دراية وعلماً بما هو عليه."[1].

4- أبو حفص الشريك بن زرقان.

5- أبو القاسم سعيد بن أبي سعيد الجنابي.

6- أبو الفضل زكريا.

أعضاء المجلس العقداني من سنة 310-332هـ:

1- أبو طاهر القرمطي قائد عام حتى سنة 318هـ، وحل محله سليمان الجلي ثم أبو طاهر.

2- الحسن بن سنبر رئيس المجلس توفي سنة 318هـ وحل محله سليمان الجلي ثم أبو طاهر.

3- سليمان الجلي.

4- معاذ بن الإعرابي الذي احتل الرقة وكفر توثا.

5- ثور بن ثور الكلابي القائد المشهور.

6- أبو فحص الشريك.

7- أبا عبد الله بن علي بن سنبر.

8- أبو الحسن علي بن بشير الجنابي.

9- عدي بن محمد بن القمر.

10- أبي اسحاق إبراهيم بن محمد.

---

[1] المصدر السابق.

أعضاء المجلس من سنة 332-342هـ:

1 - ثور بن ثور الكلابي قائد الجيش كما ذكر بن حوقل.

2 - أبو المنصور أحمد بن أبي سعيد الجنابي.

3 - أبو الحسن علي بن عثمان "مراسل القوم إلى جميع البقاع والاصقاع".

4 - الحسن بن أحمد بن بشر الحارثي.

5 - أبي طريف عدي بن محمد بن القمر.

6 - الحسين أبو محمد بن سنبر الذي رجع الحجر الأسود سنة 339هـ.

أعضاء المجلس من سنة 342-354هـ:

1 - أبو المنصور أحمد بن أبي سعيد الجنابي رئيس المجلس.

2 - ثور بن ثور الكلابي قائد عام.

3 - القاضي بن عرفة.

4 - أبو الحسن علي بن عثمان الكلابي.

5 - أبو محمد بن سنبر بن الحسن بن سنبر "ورأيته وسنه دون الخمسين وهو أكمل القوم واشدهم تمكناً من نفسه".

6 - صخر بن إسحاق.

7 - سابور بن أبي طاهر عزل سنه 354هـ وأعدم لخيانته سنة 361هـ.

أعضاء المجلس 354-366هـ:

1- الحسن الأعصم القرمطي قائد عام ثم رئيس المجلس العقداني.

2- كسرى أبي القاسم الذي احتل الشام عام 357هـ.

3- صخر بن أبي إسحاق الذي احتل الشام عام 357هـ.

4- أبو النجا عبد الله بن علي بن النجا الذي حاصر يافا سنة 361هـ.

5- عبد الله بن عبيد الله القرمطي الذي احتل الصعيد المصري 361-363هـ.

6- أبو محمد بن سنبر.

7- أبو بكر بن شاهويه الذي احتل الكوفة سنة 366هـ، ثم عين سفيراً للقرامطة في البلاط العباسي حتى سنة 357هـ.

أعضاء المجلس 366-378هـ:

1- جعفر قائد عام.

2- اسحاق رئيس المجلس قائد الهجوم على الكوفة سنة 375هـ، فاحتلوها ثم عزلا عن الحكم سنة 378هـ.

3- النعمان بن أحمد "أخو الأعصم القرمطي" الذي اشترك في حصار القاهرة 363هـ[1].

4- ابن القيس الحسن بن المنذر قتل أثناء الهجوم على الكوفة سنة 375"[2].

---

[1] ثابت بن سنان "أخبار القرامطة".

[2] ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثالث، ص110- 111.

5- الجحيش قتل أثناء الهجوم على الكوفة سنة 375هـ[1].

6- كسرى بن أبي القاسم.

---

[1] المصدر السابق، نفس الصفحة.



الفصل الثالث

الفكر الفلسفي والاجتماعي للتجربة القرمطية

أدى التطور الصناعي الذي شهدته الحقبة العباسية- في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين- إلى بروز صناعات متعددة ومتطورة، مستفيدة من تطور العلوم التطبيقية (خاصة الكيمياء في صناعة العطور) التي أنجزها علماء ذلك العصر. وقد تركزت هذه الصناعات وانتشرت في المدن الرئيسية للإمبراطورية العباسية، كبغداد، البصرة، الكوفة، حمص، دمشق، بلاد البحرين، وتبنس في مصر والمدن الإيرانية.. وأنتجت أنواعاً عديدة من الإنتاج الصناعي والزراعي، وأهمها صناعة الورق والزجاج والزجاج الملون في بغداد والسكر في إيران والمنسوجات والسجاد بأنواعها وصناعة العطور في الكوفة وصهر الحديد في دمشق. كما قامت وانتشرت الصناعات اليدوية ذات النظام الحرفي المتطور على امتداد رقعة الإمبراطورية العباسية. وقد أدى هذا التطور بالمقابل إلى قيام برجوازية تجارية نشطة وفعالة، أخذت "تكون رأسمالاً تجارياً قوياً مما أثر على عملية تجديد الإنتاج الاقتصادي" وربط علاقات الدولة العباسية التجارية مع العالم الخارجي في الاستيراد والتصدير، وقد عبرت هذه الاتصالات التجارية عن نفسها بأن أقيم "في بغداد سوق صيني بكامله بيعت فيه أفضل الأصناف من الفرو والجلد والشمع والسلاح"[1].

هذا في المجال الصناعي والتجاري، أما في المجال الزراعي، فقد انتقلت من الزراعة الضيقة والمحدودة- في القرنين الأول والثاني الهجريين- إلى الزراعة الواسعة والمتطورة القائمة على نظام السقاية المنتظم. مستفيدة من تسهيلات النظام العباسي وقطع الإقطاعات لها من جهة، واستعباد مئات الألوف من الفلاحين الفقراء من جهة ثانية.

---

[1] د. طيب تيزيني "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط".

كل هذا التطور الصناعي والزراعي يجري في ظل دولة شديدة المركزية، تعاقب عليها خلفاء بني العباس الأقوياء أمثال الرشيد، المأمون، المعتصم- الذين دام حكمهم حوالي نصف قرن- وما امتاز به هؤلاء عن غيرهم من الخلفاء العباسيين بالانفتاح الحضاري وتسهيل الخدمات للرأسمال التجاري النامي المستفيد من ميزات النظام هذه، وهدوء وأمن سواحل الدولة وشواطئها الطويلة والمشجعة لنشاط التبادل التجاري مع البلدان الأخرى.

فما هي نتائج هذا التطور؟

أ- بروز طبقة عمالية واسعة- نوعاً ما- متمركزة في الأماكن الصناعية، وخاصة صناعة النسيج بحيث يقدر "عددهم بالآلاف"[1] وقيام الصناعات اليدوية ذات النظام الحرفي المتطور بجانبها وهي أكثر المهن انتشاراً، مولدةً أعداداً هائلة من الحرفيين الفقراء. وقد استفادت الحركة السياسية- خاصة القرامطة- من الوضعية اللاإنسانية لهؤلاء العمال واندفاعاتهم للنضال الطبقي ضد السلطة العباسية، إذ تشكلت النقابات العمالية والحرفية لتكون منهم قوة تستند عليها في المستقبل في صراعها الطبقي ضد السلطة العباسية. وهذا ما تم فعلاً.

ب- على أثر التوسع في المجال الزراعي، اتسعت طبقة الفلاحين أكثر فأكثر وازدادت بالمقابل اضطهاداً وبؤساً بفعل ما تعانيه من تعدد الضرائب الباهظة واستثمار مزدوج "استثمار الإقطاعية المحلية واستثمار الإقطاعية المركزية" وما أدت إليه في نهاية المطاف هذه الوضعية المزرية لطبقة الفلاحين من قيامها بأكثر من ثورة شعبية: ثورة بابك، الزط، الزنج، القرامطة.

---

[1] كلود كاهن "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ص200.

ج- دخول عنصر جديد في عملية الإنتاج الزراعي، ألا وهو **الرقيق الأسود**. الذي استخدم بأعداد هائلة- لا في خدمة المنازل والترفيه كما هو معروف- بل في مجال استصلاح الأراضي من الأملاح في منطقة البصرة ووسط العراق. ويقدر بعض المؤرخين، بأن عدد الرقيق الذين استخدموا في هذا المجال "حوالي مائة ألف". وما ثورة الزنج في البصرة، والمعروفة باسمهم، إلا دليلاً ساطعاً عن الوجود المكثف لهؤلاء العبيد الأرقاء.

الحالة الثقافية والسياسية:

يعتبر القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، من أزهى العصور الثقافية التي مرت بها الدولة العباسية، فقد رافق التطور الاقتصادي- من اقتصاد يقوم على العلاقات الطبيعية إلى اقتصاد قائم على النقد والإنتاج البضائعي- تطور ملحوظ في الناحية الثقافية، بفعل حركة الترجمة الواسعة التي اضطلع بها مفكرو المعتزلة، بدفع وتشجيع من الخليفة المعتزلي المأمون، الذي أولى جهوداً كبيرة في نشر الثقافة ونقل التراث اليوناني والفارسي للغة العربية. فأنشأ بذلك أول أكاديمية للعلوم، ومكتب للترجمة في قصره. يقول لاندو "لقد بعث- أي الخليفة المأمون- بالرسل إلى كل بلد تراءى له فيه مخطوطات يونانية. وجند عدداً لا يحصى من المترجمين، فنقلوا تراث اليونان الكلاسيكي"[1].

وهكذا تمت ترجمة معظم كتب أرسطو وأفلاطون، أفلوطين الاسكندراني وجاليوس وغيرهم من مفكري وعلماء اليونان القدماء. وتناقلت- هذا التراث- الأيادي المتعطشة للمعرفة، فانتشرت الفلسفة اليونانية في صفوف المثقفين مولدةً- لدى الكثير منهم- نزعة شكية تجاه المعتقدات السائدة. فاتسعت بذلك دائرة الزندقة بين صفوفهم، كما ازداد

---

[1] روم لاندو "العرب والإسلام"، ص213.

عدد طلاب العلم في المدارس الخاصة والمساجد بفضل رعاية الدولة واهتمامها المتزايد بنشر العلم (المأمون). "ولم توجد مدينة إلا واختصت بمكتبة أو مكتبات عديدة"[1].

وبرز ضمن صفوف المثقفين مفكرون وعلماء وضعوا الأساس الفلسفي للفكر العربي- الإسلامي في العصر الوسيط أمثال الكندي- الفيلسوف المثالي- والفارابي وابن سينا وجابر بن حيان، حيث وضعوا الأساس الأول للمادية الاجتماعية الهرطقية. أما أبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والجبائي، فقد كانوا رواد الفكر المعتزلي. وأبو عيسى الوراق وابن الراوندي وأبو بكر محمد الرازي، فهؤلاء مثلوا التيار الإلحادي في الإسلام.

أما الناحية السياسية، فقد تحدثنا عنها في الفصل الأول.

نشوء الحركة الإسماعيلية:

نشأت الحركة الإسماعيلية في البيئة الشيعية- في بداية الأمر- وتفرعت منها. وسميت بالإسماعيلية نسبة لإسماعيل بن جعفر الصادق. وكان إسماعيل- هذا- أكبر أبناء الإمام جعفر الصادق، أحد أئمة الشيعة (الإثنا عشرية). وقد حصل خلاف حاد بين الأب والابن، بفعل ما اتهم به الابن- إسماعيل- من عدم التقيد بأخلاق وعادات البيت العلوي "لإدمانه على الخمر"، ولاهتمامه بالأمور الفلسفية أكثر من الأمور الدينية، ولكن ملاحظات البيت العلوي هذه لم تعزل إسماعيل عن أنصاره ومريديه، فقد استطاع إسماعيل أن يخلق حوله أتباعاً كثيرين

---

[1] كلود كاهن "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ص200.

تعلقوا بشخصيته المحبوبة بالرغم من وجود أبيه الإمـام جعفـر الـصادق على قيد الحياة. ولكن موت إسماعيل المفاجئ- في عهد أبيـه- ولـد أزمـة حادة داخل التيار الشيعي، مما جعل الإمام جعفر الصادق أن يبادر بتعيـين ابنه الثاني موسى الكاظم خلفاً له محاولةً منه للحفـاظ عـلى وحـدة التيـار الشيعي، وقال الإمام جعفر الصادق عند قبر ابنه إسماعيل "هذا إسـماعيل ولدي قد مات، وقد غسلته وكفنته بيدي". وقد أثار كلامه استغراباً عنـد شيعته. فقال لهم إن له أتباعاً- يقصد إسماعيل- ومن هنا حصل الخـلاف التاريخي المعروف داخل الحركة الشيعية. فقد قال أتباع إسـماعيل بأولويـة ابن إسماعيل محمد- الذي لا زال طفلاً صغيراً- بالإمامة ولا تحق لموسـى الكاظم- أخو إسماعيل الإمامة، لأن الإمامة- حسب وجهة نظـرهم- لا تنتقل من الأخ إلى أخيه.

أما التيار الشيعي، فقال بوجوب الإمامة لموسى الكاظم، حـسب مـا أوصى به الإمام الصادق، ومما عمق الخلاف أكثر- في بداية الأمر- إدعـاء الإسماعيلية، بأن محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع المنتظر. بينـما الـشيعة تعتبر الإمام الثاني عشر "المهدي" هو الإمام المنتظر الذي سـيملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت جوراً. من هنا جاءت تسمية الإثنى عـشرية مقترنـة بالتيار الشيعي.

الإسماعيلية الأولى:

ولدت النـواة الأولى للإسـماعيلية، وترعرعـت في مدينـة الكوفـة في العراق- في منتصف القرن الثاني الهجري- على يد المبارك مـولى إسـماعيل بن جعفر الصادق. وقيل أيضاً على يد الخطابية- نسبةً لأبي الخطـاب ابـن زينب الأسدي- مولى جعفر الصادق. مهما يكن من الأمر، فإن المباركية-

والخطابية- لم تستطع أن تمنح الحركة أفقاً ثورياً. لا على الصعيد النظري. ولا على الصعيد السياسي والتنظيمي. وكل ما استطاعت المباركية- أو الخطابية- أن تقدمه للحركة الإسماعيلية هو الدعاء والتمسك بإمامة محمد بن إسماعيل من جهة، وتأويل القرآن تأويلاً باطنياً- فكل ظاهر باطن- من جهة ثانية. وضمت في صفوفها الفرق التي خرجت عن التيار الشيعي من جهة ثالثة.

وقد ظل نشاط الإسماعيلية الأولى مقتصراً في مدينة الكوفة- بلد التشيع المشهور- والقرى المجاورة لها. ثم انتقل مركز الدعوة إلى الأهواز ثم استقر في السلمية في سوريا. وكانت السمة العامة للإسماعيلية الأولى، على أنها جمعية سرية ذات نفوس دينية معينة. ولم تدخل الأفكار الثورية على الحركة الإسماعيلية إلا في مرحلتها الثانية. من قبل أشخاص ثوريين عرفوا كيف يوجهون الحركة الإسماعيلية، تجاه الهدف الرئيسي الذي يصبون إليه.

الإسماعيلية الثانية الثورية:

في هذه المرحلة- من سنة 230 هـ- 287 هـ- استكملت الحركة الإسماعيلية- القرمطية البناء الفلسفي والفكر الاجتماعي. وما شعارهم الديني "السابق". الإدعاء بإمامة محمد بن إسماعيل "المهدي المنتظر". ما هو في حقيقة نظرهم، إلا تجسيداً لفكرة مجتمع المساواة الفعلية، الذين يناضلون في سبيل تحقيقه. يقول الشريف "أخي محسن" "وليس غرض هؤلاء أصحاب هذه الدعوة الخبيثة، أن يؤخروا موسى بن جعفر ولا أن يقدموا إسماعيل بن جعفر ولا ابنه محمداً، وإنما جعلوا هذا كأداة الصانع

التي لا تتم الصنعة إلا بها. فإذا انقاد لهم المغرور وسمع قولهم تيقنوا أنهم قد تمكنوا من عقله، وسلكوا به أي مسلك أرادوه"[1].

وقد لعب قادة ثوريون دوراً بارزاً في وضع الأسس الفكرية والتنظيمية للحركة الإسماعيلية. ولكن النضال السري الطويل- لهذه الحركة والمطاردة المستمرة لعناصرها الثورية- حجب عنا أسماء معظم الذين ساهموا بشكل فعال في وضع الخطوط العريضة لأهداف الحركة الإسماعيلية.

وكان ميمون القداح والدنداني، هما الشخصيتان- الأولى- التي احتفظ لنا بها التاريخ. حيث أنهما واضعا الأسس الثورية الأولى للحركة. ولكن عبد الله بن ميمون القداح- المتوفى سنة 264 هـ- والخصيبي- المتوفى سنة 270 هـ- هما الشخصيتان، اللتان أنجبتهما الحركة الإسماعيلية- في منتصف القرن الثالث الهجري- فهما واضعا الصيغة النهائية للنظرية الإسماعيلية الثورية. سواء على صعيد تفسير الكون تفسيراً مادياً "هرطقياً" أو على صعيد الفكر الاجتماعي الثوري. ويقال أن عبد الله بن ميمون القداح هو الذي وضع البرنامج الاجتماعي وأسس النظام الداخلي للحركة الإسماعيلية. يقول دي جوزي واصفاً البرنامج السياسي والاجتماعي الذي وضعه عبد الله بن ميمون القداح "أن يجمع في رابطة واحدة بين المقهورين والظافرين، وأن يضم في جماعة واحدة سرية فيها مراتب عديدة: أحرار الفكر الذين لم يروا في الدين غير جامع

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2، ص162.

للشعب، ثم اغتصبته المتعصبة من كل الفرق وأن يستخدم المؤمنين لتمكين السلطان لغير المؤمنين، والغزاة لتحطيم الدولة التي أسسوها، وأن يتحدوا في حزب كثير العدد متماسك مطيع كل الطاعة يعطيه العرش له أو على الأقل لأحد ذريته في الوقت المناسب: تلك كانت الفكرة المتسلطة على ذهن عبد الله بن ميمون، وهي فكرة غريبة وجريئة، لكنه حققها بمهارة مدهشة وبراعة لا نظير لها ومعرفة عميقة بالقلب الإنساني"[1].

إن انتشار أفكار الإسماعيلية الثورية وامتدادها الشامل في المدن والأرياف، جاء عبر بث دعاة الحركة الإسماعيلية في كل مكان. فأخذ أنصارهم ومؤيديهم يزدادون مع مرور الأيام. وقد استطاع الفرع الإسماعيلي في العراق- والذي سمي فيما بعد بالقرامطة- أن يغني واقع الحركة الإسماعيلية الثانية عبر تطبيق الأفكار المجردة للحركة الإسماعيلية على أرض الواقع الاجتماعي. لذا جاءت كلمة "القرمطية" مقترنة بالإسماعيلية الثانية الثورية بفعل تلك التطبيقات الخلاقة لقرامطة العراق والتي تظهر بشكل واضح في مجتمع الألفة "الإنساني" "الذي جعل أعضاء الحركة متساويين في كل شيء" وتتضح صورة مجتمع الألفة هذا، أكثر فأكثر من خلال الإجراءات الثورية التي طبقها قرامطة بلاد البحرين- وقد تحدثنا عنها في الفصل الثاني- والتي تعتبر صورة مكبرة ومكملة لما تم في مجتمع الألفة في مدينة الكوفة في العراق.

---

(1) المصدر السابق، ص103.

الإسماعيلية الثالثة "الإصلاحية":

على أثر الخلاف الحاد الذي وقع ما بين سنة 278هـ- 287 هـ بين فروع الحركة الإسماعيلية في كل من العراق وبلاد البحرين واليمن- والذين أطلقوا على أنفسهم بعد هذا الخلاف بالقرامطة، نسبةً لحمدان قرمط رئيس الفرع الإسماعيلي في العراق- وبين المركز الرئيسي للحركة الإسماعيلية في السلمية في سوريا، الذي مثل النزعة السلطوية والإصلاحية على يد الإمام سعيد الملقب "بعبيد الله المهدي". وقد وقف الإمام سعيد- هذا- موقف الرفض والاستنكار تجاه التجربة الثورية الرائعة لقرامطة العراق "مجتمع الألفة"- سوف نشرح هذا الخلاف بالتفصيل في النظام الداخلي للحركة- وحكمت الإسماعيلية الثالثة المغرب العربي ثم مصر من سنة 297هـ- 567هـ. وعرفت في التاريخ باسم الدولة الفاطمية. وقد لعبت هذه الدولة دوراً تآمرياً رهيباً على الحركة القرمطية، فيما بعد. لذا نرى قرامطة شرقي الجزيرة العربية، يشنون حروبهم الطاحنة- كما ذكرنا ذلك في الفصل الثاني- ضد هذا التآمر، ضد هذه الدولة التي تخلت كليةً عن المبادئ الأساسية- للحركة الإسماعيلية- القرمطية الثورية.

جذور الفكر الفلسفي والاجتماعي القرمطيين:

يطرح المستشرق السويسري بول هارد "أن حمدان قرمط مؤسس الحركة القرمطية قد تأثر إلى حد كبير بأفكار السيد المسيح"![1]. إن هذه المقارنة الغريبة لا تدحضها قلة المصادر في هذا المجال فحسب، بل تدحضها وبشكل حاسم كل مواقف القرامطة النظرية والعملية، التي تصدت إلى الإيديولوجية الغيبية الإقطاعية قرابة القرنين من الزمن. وشهرت السلاح بوجه الدولة العباسية- وغيرها من الدول الطبقية- الطاغية لمدة تزيد على القرن من الزمن.

إن الفكر الفلسفي القرمطي، يستمد جذوره من كل مكتسبات الفكر الإنساني، عبر مراحله الطويلة- التراث اليوناني والفارسي- والذي وصل إلى قمته في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، على أيدي مفكري الحركة الإسماعيلية- القرمطية أنفسهم: عبد الله بن ميمون القداح والخصيبي وحمدان قرمط وعبدان الكاتب العقل المفكر للحركة القرمطية. وحيث يحسب أيضاً على الخط الإسماعيلي كل من الفيلسوف المشهور الفارابي وابن سينا.

وانطلاق القرامطة في تفسير الكون والعالم، تفسيراً مادياً هرطقياً- راجع البلاغات السبع- يجد جذوره الأولى في الفلسفة اليونانية "هيروقليطس" وذلك في تأكيدهم "على قدم العالم وإنكار كل الرسل

---

[1] "الحركات الفلاحية عبر التاريخ، ص75.

والشرائع"[1] تقول الوثيقة القرمطية ".. إن على الفلاسفة العمده وأنا قد اجتمعنا وهم على نواميس الأشياء وعلى القول بقدم العالم"[2].

وقد توصل مفكرو القرامطة إلى هذه النظرة المادية الهرطقية، عبر إطلاعهم الثقافي الواسع على تاريخ الشعوب والأديان. وأكسبوها مفهوماً مادياً اجتماعياً هرطقياً، يقول الدوري "وإطلاع زعماء الإسماعيلية على كافة الديانات والثقافات أبان لهم بأن الضغط الاجتماعي حصل في مجتمعات غير إسلامية كما حصل في المجتمع الإسلامي. لذلك وجهوا هجماتهم ضد جميع الأديان ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء إلى الدين ذاته. فشجعوا الفلسفة وحاربوا الأديان. لا ليستبدلوها بدين رسمي آخر بل ليتخلصوا منها"[3].

أما من ناحية فكرهم الاجتماعي. فمما لا شك فيه أن القرامطة تأثروا بالفلسفة المزدكية الثورية. وتظهر بصمات أفكار وآراء الفيلسوف الفارسي مزدك واضحة المعالم في برنامج القرامطة الاجتماعي. فالفيلسوف مزدك- المتوفى سنة 531 م- يؤكد أن سبب كل الشرور الاجتماعية مصدرها سببان رئيسيان "المال والنساء" فإذا أصبح المال والنساء مشاعاً بين الناس "انتفت كل الشرور الاجتماعية". فقد أشاع القرامطة الأولى "المال"- سواء في مجتمع الألفة في الكوفة أو المجتمع القرمطي في شرقي الجزيرة العربية كما وضحنا في الفصل الثاني- ولم يشيعوا الثانية وهي "النساء" كما صورها بعض المؤرخين المفترين للنيل من هذه التجربة الفريدة. باعتبار الحركة القرمطية وليدة ظروف تاريخية معينة، ليس من السهل عليها

---

[1] أبو المنصور البغدادي "الفرق بين الفرق".

[2] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2.

[3] د. عبد العزيز الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص25.

الإقدام بمثل هذه الخطوة. وكل ما قدمته الحركة القرمطية بصدد المرأة، هي مساواتها الفعلية مع الرجل في كل الحقوق والواجبات.

ومما هو جدير بالملاحظة هنا. هو أنه إذا كان الفيلسوف العربي- الإسلامي المشهور "الفارابي" "واضع اللبنات الأولى للمادية الاجتماعية الهرطقية"[1] في كتابه القيم "آراء أهل المدينة الفاضلة" نقول إذا كان الفارابي واضع هذه اللبنات فإن ما جاء في كتابه قد استوحى خطوطه العريضة من التجربة الفذة لقرامطة العراق "مجتمع الألفة في الكوفة" وإن أدلة قوية تؤكد ذلك.

أ- عرف تاريخياً أن الفارابي، وضع كل كتبه الفلسفية القيمة وهو في سن ما فوق الأربعين عاماً. عندما أجاد اللغة العربية وتبحر بها.

ب- يطالعنا الفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" بفكر إسماعيلي- قرمطي واضح يهدف منه إشادة مجتمع خالي من الشرور، مجتمع تتحقق فيه المساواة الفعلية. وقد استوحى الفارابي فكرة الكتاب من تجربة قرامطة العراق "مجتمع الألفة الإنساني". وليس صحيحاً - كما يتوهم كثير من الكتاب- أن الفارابي قد تأثر في كتابه هذا بكتاب "جمهورية أفلاطون" المثالي. ولولا ضيق المجال لأوردنا العديد من الأمثلة التي تبين الصلة القائمة بين مجتمع الألفة وبين ما تضمنه الكتاب هذا.

ج- لقد أشاد القرامطة تجربتهم الأولى في العراق في مدينة الكوفة سنة 277هـ والفارابي لازال شاباً يافعاً.

---

[1] د. طيب تيزيني "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط".

خاصةً إذا عرفنا، أن موت الفارابي كان سنة 339هـ وعمره يناهز الثمانين عاماً. فيكون عمره عشرين عاماً عندما أقام القرامطة تجربتهم الأولى وثلاثين عاماً منذ أقام القرامطة تجربتهم الثانية في شرقي الجزيرة العربية. وهكذا يمكننا أن نعتبر كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" صورة عن مجتمع الألفة، صورة سعى من ورائها الفارابي رسم المجتمع الإسلامي الخالي من الشرور الاجتماعية. وتحقيق سعادة الإنسان كما سعى إلى تحقيق ذلك على الواقع العملي كل من حمدان وعبدان في الكوفة وأبو سعيد الجنابي وسنبر في شرقي الجزيرة العربية.

نشاطهم السياسي:

"إياك أن تسلك بالجميع مسلكاً واحداً، فليس كل من يحتمل قبول هذه المذاهب، يحتمل الخلع والسلخ ولا كل من يحتمل الخلع يحتمل السلخ. فليخاطب الداعي الناس على قدر عقولهم"[1].

ومضى حوالي قرن من الزمن- من سنة 148هـ- 240هـ- والحركة الإسماعيلية لا زالت تتعثر في طريقها، لا زالت منظمة سرية صغيرة، غير فعالة في مجرى الواقع الاجتماعي. بفعل ظروف موضوعية وذاتية. بفعل وجود سلطة مركزية قوية أولاً. ولعدم استكمال البناء النظري والتنظيمي للحركة ثانياً ولافتقارها للقادة الثوريين ثالثاً.

ولم يطل منتصف القرن الثالث الهجري، إلا والوهن والضعف أخذا ينخران جسم الإمبراطورية العباسية. على أثر مجيء خلفاء من بني العباس، ضعفاء، وقعوا تحت تأثير حاشيتهم ومحظيانهم، وانغمسوا في ملذاتهم ولياليهم الحمر. تاركين مسألة إدارة الدولة المترامية الأطراف إلى

---

[1] الإمام الغزالي "فضائح الباطنية"، ص33.

عناصر هزيلة وفاسدة. فعم الفساد في الجهاز الإداري الواسع. وتدهورت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية- بشكل لم يسبق له مثيل- فازداد بؤس وشقاء الطبقات الشعبية من جراء هذا التدهور من جراء الضرائب الباهظة والمتعددة التي تنوخ بثقلها عليهم.

هذه الصورة الاجتماعية البائسة للجماهير الشعبية، أمام فساد الدولة، أمام عسف الطبقة الإقطاعية أدت في نهاية المطاف إلى القيام بثورة شعبية عارمة. وكانت قاعدتها الاجتماعية الأساسية "العبيد الأرقاء" في البصرة.- لذا سميت بثورة الزنج- وشهرها السلاح بوجه الدولة العباسية لمدة خمسة عشر سنة- من سنة 255- 270هـ- خالقةً بذلك مناخاً ثورياً ملائماً لنشاط الحركات الثورية الأخرى- لاستثمار هذه الوضعية الثورية- لمضاعفة فعالية نشاطها الثوري ضد الدولة العباسية، لانهماك هذه الأخيرة وجيوشها الجرارة في محاربة وإخماد ثورتهم الشعبية- أي ثورة الزنج- وكانت الحركة الإسماعيلية هي الحركة السياسية الوحيدة التي عرفت كيف تستثمر هذا المناخ الثوري- الذي ولدته ثورة الزنج- لتزيد من كفاحها اليومي في المدن والأرياف. فأرسلت أحد قادتها الأفذاذ الداعي حسين الأهوازي من السلمية في سوريا إلى مدينة الكوفة في العراق سنة 261هـ. ويلتقي حسين الأهوازي هذا بحمدان بن الأشعث الملقب بالقرمط- الذي تنتسب إليه الحركة القرمطية- ويكسبه إلى جانب الحركة الإسماعيلية. ويلتقي كذلك أحمد بن عبد الله سنة 264هـ بأبي المنصور بن حوشب وعلي بن فضل. ويبديان استعدادهما للعمل في إطار الحركة الإسماعيلية. ويصبحان بعد ذلك الداعيين الرئيسيين في اليمن.

إن استمرار المعارك الطاحنة بين جيوش الدولة العباسية من جهة وقائد ثورة الزنج من جهة أخرى، دفع بالفرع الإسماعيلي في العراق خاصةً، أن يعمق من جذوره في الكوفة وواسط. وذلك بقدرته الفائقة على تأطير السواد الأعظم من الجماهير الفقيرة هنالك. ويذكر بعض

المؤرخين على أن الداعي الإسماعيلي الكبير حسين الأهوازي التقى بقائد ثورة الزنج علي بن محمد في البصرة سنة 264هـ وقال له- أي الحسين- "ورائي مائة ألف ضارب سيف" ولكن لم يثمر هذا اللقاء التاريخي عن شيء. للملاحظات لدى قرامطة العراق على قائد ثورة الزنج كما يذكر لنا بذلك المستشرق نودلكه.

وما أن أعلنت الدولة العباسية، انتصارها على ثورة الزنج ومقتل قائدها علي بن محمد سنة 270هـ إلا والخراب والدمار يعصر كل شيء. وازدادت بالمقابل شراسة وبطش الدولة العباسية- عبر حملاتها "التأديبية" تجاه الجموع المتبقية من ثوار الزنج وأنصارهم- لحصر حالة التذمر الذي يزداد يوماً عن يوم في صفوف الجماهير العشبية من نتائج هذه الحرب المدمرة. كل هذا يجري والحركة القرمطية تراقب عن كثب تلك التطورات الخطيرة، وتضع المخططات تلو المخططات، وتدرس بدقة متناهية، كيفية استثمار هذا السخط الاجتماعي الكبير. وتسخيره- بشكل سليم- لصالح ثورتهم الاجتماعية الكبرى.

وإن نجاح الثورات القرمطية، التي شهدها التاريخ العربي- الإسلامي في أكثر من قطر أو بلد وفي آن واحد تقريباً، يعود بالأساس إلى صحة تلك المخططات، إلى تلك الأساليب الثورية الناجعة في العمل السياسي والتنظيمي التي ابتكرتها- لأول مرة في التاريخ العربي- الإسلامي- الحركة القرمطية، ولتكون سر نجاحهم الثوري العظيم.

أ- وجود نظرية ثورية:

تعتبر الحركة الإسماعيلية- القرمطية. أول حركة ثورية في التاريخ العربي- الإسلامي تستند في نضالها اليومي إلى نظرية ثورية، تستمد

جذورها الفلسفية من آخر ما توصل إليه تطور الفكر المادي الاجتماعي الهرطقي في ذلك العصر. إن امتلاك سلاح نظري أضاء الطريق أمام ممارسة الحركة الإسماعيلية القرمطية، ولمعرفة من هي الطبقات صاحبة المصلحة الأولى في عملية التغيير الثوري هذا. نقول أن امتلاك مثل هذه النظرية الثورية- المسطرة في أكثر من كتاب مثل كتاب السياسة للقرامطة- حددت القاعدة المادية الجماهيرية لثورة "فلاحين، عمال، بدو..الخ" وطرحوا برنامجهم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، كبديل لكل ما هو قائم وفاسد. فأصانوا عملهم الثوري هذا، من زلة الانحراف أو التذبذب، وحاربوا الشعوبية أو النظرة القومية الضيقة. وانطلقوا في عملهم السياسي هذا من نظرة عالمية شمولية تضم المضطهدين من جميع الأجناس. تقول الوثيقة القرمطية الأولى "أول الدعوة بعد عمل الداعي. قوة إجابة المدعو من سائر الأمم"[1]. فضمت في صفوفها- عبر هذه النظرة الأممية- "العربي، الكردي، الفارسي، التركي، النبطي".

ب- الاستفادة من تجارب الآخرين:

عاصرت الحركة الإسماعيلية- القرمطية ثلاث ثورات شعبية، هي من أبرز الثورات الشعبية الكبرى التي عرفها التاريخ العربي- الإسلامي قبل ثورات القرامطة العظمى.

أ- ثورة بابك الخرمي في أذربيجان وشمال فارس- من سنة 201هـ- 202هـ- وتعتبر هذه الثورة العارمة أول صورة طبقية حقيقية اهتزت لها أركان الدولة العباسية.

---

(1) د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ص162.

ب- ثورة الزط في أهوار ومستنقعات جنوب شرق العراق من سنة 205هـ- 219هـ بقيادة القائد الملهم محمد عثمان.

ج- ثورة الزنج في البصرة ووسط العراق من سنة 255هـ- 270هـ بقيادة القائد علي بن محمد.

إن الفائدة الكبرى التي استنبطتها الحركة الإسماعيلية- القرمطية من تلك التجارب الثورية التي لم يحالفها الحظ في النجاح، أن استخلصت الدروس المريرة والمفيدة، لأسباب إخفاق تلك الثورات الشعبية الكبرى. فأصانت بذلك نفسها من الأخطاء السابقة. وأهم درس استخلصته الحركة الإسماعيلية- القرمطية من تلك الثورات، هو سلبية فقدان التنظيم الثوري والشمولي السليم للعمل النضالي المسلح، والملتزم بنواة ثورية. فعلى الرغم من أن الجماهير الغفيرة والواسعة، قد انضوت تحت راية القائد اللامع بابك. لم توفق الثورة البابكية إلى النجاح بسبب فقدان العامل الأساسي(*). فقد انحصرت الثورة البابكية في أذربيجان وشمال فارس ولم تستطع أن تمتد إلى مناطق أخرى من أجزاء الإمبراطورية العباسية، وتكسب العرب وغيرهم من الأقوام. لذا سهل الأمر على الجيوش العباسية الجرارة تطويقهم وتضييق الخناق عليهم وأخذت ثورة بابك تتآكل على مر السنين فانتشار الجواسيس واعتراف عصمت الكردي[1] ما هي إلا عوامل ثانوية في أسباب فشل هذه التجربة الثورية الرائعة.

(*) لم يتطرق الدكتور قاسم حسين العزيز في كتابه القيم "البابكية" الى هذا العامل الأساسي في سقوط الثورة البابكية.

[1] د. قاسم حسين "البابكية"، ص198، 211.

هذا ما حدا بالحركة الإسماعيلية- القرمطية، على أن توسع من قاعدتها التنظيمية في المدن والأرياف وفي أكثر من منطقة وبلد. ولما توافرت الظروف الموضوعية والذاتية للثورة الشعبية، هبت الحركة الإسماعيلية- القرمطية، بثوراتها العارمة العديدة وفي أماكن عدة في آن واحد تقريباً، مشتتةً وممزقةً جيوش الدولة العباسية الجرارة. عبر التماسك والتعاضد بين فروعها المنتفضة. قرامطة شرقي الجزيرة العربية يستولون على السلطة سنة 286هـ ويهزمون الجيش العباسي سنة 287هـ وتستبسل الجماهير القرمطية في العراق للذود عن مجتمعهم الإنساني "مجتمع الألفة" ضد الجيوش العباسية سنة 287هـ. وتنتفض قرامطة العراق مرة ثانية بقيادة القائد القرمطي العظيم أبو الفوارس سنة 289هـ. والقرمطي الجريء زكرويه بن مهرويه، يزرع الرعب والدمار في قلب الدولة العباسية، على طول المنطقة الواقعة بين الأراضي العراقية والسورية من السماوة إلى حمص- وبشكل مستمر ومتواصل من سنة 289هـ- 290هـ. والقائد الفذ علي بن فضل القرمطي وأبو المنصور بن حوشب يعلنا ثورتهما في اليمن ضد الخلافة العباسية سنة 286هـ ويحتل القائد القرمطي علي ابن فضل صنعاء سنة 293هـ. والقائد أبو عبد الله الشيعي- المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في شمال إفريقيا والذي كان مصيره المأسوي على يد الإمام المذكور "سعيد الملقب بعبيد الله المهدي" كمصير أبو مسلم الخرساني على يد أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية- يحتل القيروان ثم المغرب العربي سنة 297هـ.

ج- أسلوب عملهم مع الجماهير:

إن المآثر الخالدة للحركة الإسماعيلية- القرمطية، لا تتجسد في طرح إيديولوجية ثورية متقدمة على كل الإيديولوجيات السائدة في عصرهم

فحسب. بل تتجسد- تلك المآثر- بنجاح التجربة القرمطية على أرض الواقع العملي- الكوفة، شرقي الجزيرة العربية، اليمن- عبر امتلاك أساليب عمل جديدة في نشاطهم السياسي اليومي في وسط الجماهير. فقد استخدمت الحركة الإسماعيلية- القرمطية أساليب عديدة، غلفت أفكارها السياسية والفكرية بغلاف سميك من الألفاظ الدينية الضخمة تكمن في جوهرها فلسفتها المادية الاجتماعية الهرطقية. وانتهجت أسلوباً فريداً في دعوتها "هو من أدق ما عرف تاريخ الحركات السرية في العالم"- بندلي جوزي- نقول لولا هذه الأساليب الناجعة في مخاطبة الجماهير. وامتلاك مقاييس عديدة في علاقتها مع الوسط الاجتماعي لما نالت الحركة القرمطية أي نجاح يذكر- خاصةً إذا عرفنا مدى عمق فظاعة التخلف الاجتماعي آنذاك وهيمنة الإيديولوجية الغيبية على نفوس السواد الأعظم من البسطاء. من هنا انطلق القرامطة- بنظرة مفرطة بالذكاء الحاد- بوضع عدة أساليب تكتيكية ثورية تصب كلها في خدمة المجرى العام لاستراتيجيتهم الثورية.

فما هي الأساليب الثورية التي طبقها القرامطة في نشاطهم النضالي اليومي في تلك الحقبة من التاريخ؟

1- البلاغات السبع وأهدافها- سنشرحها بالتفصيل في النظام الداخلي..

2- تكتيكهم في وسط الديانات الأخرى.

3- الدعوات التسع ومراميها.

4- إنشاء النقابات العمالية.

إن تطبيق وترجمة هذه الأساليب التكتيكية- الأنفة الذكر- تقع بشكل أساسي على عاتق الداعي القرمطي "الكادر". لذا وجب علينا قبل

الدخول في شرح أساليب عملهم تلك، كما تضمنتها كتب القرامطة العديدة. التعرف إلى صفات وشروط الكادر القرمطي، حسب ما تؤكد عليه مصادر وأدبيات القرامطة العديدة.

صفات الكادر القرمطي:

تؤكد البلاغات السبع والدعوات التسع وكتاب الدرس الشافي للنفس وكتاب السياسة، على أهمية الداعي الإسماعيلي - القرمطي (الكادر) بالنسبة للحركة، وإن نجاح الحركة أو فشلها يعود بالأساس إلى نوعية هذا الكادر، إلى نوعية هذا العقل التنظيمي وقدرته الفائقة على بلورة فكر وتكتيك الحركة في نضالها اليومي في صفوف الجماهير.

فالكادر يتولى مهام نضالية جسيمة، يتولى زرع البذرة الأولى على أسس سليمة. وتحذر التعاليم القرمطية الكادر "لا تطرحوا بذرتكم في أرض سبخة"[1]. فالحسين الأهوازي الداعي الكبير يلتقي في الكوفة بحمدان قرمط سنة 261هـ ويكونا - بعد فترة من الزمن - الحركة القرمطية في العراق. وأبو سعيد الجنابي يصل إلى شرقي الجزيرة العربية سنة 274هـ ويحقق نجاحه العظيم سنة 286هـ وعلي بن فضل وابن حوشب يصلان إلى اليمن سنة 264هـ ويكونا الحركة القرمطية هنالك وحسن الصباح يصل إلى آلموت - في شمال إيران - ويحقق نجاح الإسماعيلية الثالثة هنالك. فما هي الشروط والتعليمات التي طبقها هؤلاء كلٌ حسب ظروف منطقية؟

---

[1] أبو المنصور البغدادي "الفرق بين الفرق"، ص283.

تقول إحدى وثائق القرامطة المسماة بكتاب السياسة "واستعمل في أمرك الكتمان. كما يوصي نبي القوم خاصته فقال واستعينوا على أمركم بالكتمان. ولا تظهر أحداً على شيء مما يظهر عليه من هو فوقه بوجه ولا سبب. وعليك بإظهار التقشف للعامة والوقار عندهم وتجنب ما هو منكر عندهم، ولا تبسط كل الانبساط لإخوانك البالغين، كما فعل من قبلك، فإنه أتى بالتشديد ثم حل الأمور. وعليك بعد ذلك بالاجتهاد في معالجة خفة اليد والأخذ بالأعين والحذق بالشعوذة إلى إقامة المعجزات، كما نسبوا قوماً تقدموا، وعليك بمعرفة أحاديث الأولين وقصصهم وطرائقهم ومذاهبهم. لتكون بينة أمرك في الأقاويل على قدر ما يصلح لأهل زمانك. فإذا تدبرت بهذا وسلكت طريقه. فقد سلكت طريق الأنبياء وأخذت حدودهم"[1].

وتضيف أيضاً بعض الكراريس الداخلية، للحركة القرمطية، عن الصفات المطلوبة كذلك من الكادر القرمطي، وذلك بتوسيع دائرة ثقافته، والاستمرار على استلهام المزيد من المعرفة من بطون الكتب سواءً في تاريخ الشعوب أو الأديان. والتبحر في علم الكلام والفقه، ليكون دائماً وأبداً حاضر البديهة، سريع الجواب، لكل سؤال قد يواجه الكادر من قبل المواطنين أو بعض المتبحرين في علم الكلام والفقه. تقول الوثيقة القرمطية "ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة- يقصدون النبي محمد- حين سألوه عن الروح فقال: الروح من أمر ربي. لما لم يحضره جواب المسألة"[2].

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2، ص180.

[2] أبو المنصور البغدادي "الفرق بين الفرق"، ص281.

وتختلف طبيعة نشاط وأساليب كل كادر على حده، حسب الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وقدرته الفائقة على التكيف مع ذلك الوسط. من هذه الزاوية انطلق كافة دعاة (الكوادر) الحركة القرمطية.

فالداعي حسين الأهوازي، عندما وصل إلى الكوفة- بلد التشيع المعروف وتعلق أهلها بالبيت العلوي أخذ يصلي خمسين ركعة في اليوم الواحد مما بهر عقول الناس فتعلقوا بشخصه وازداد أنصاره في أوساط الفلاحين. فولد ذلك تذمر عند الإقطاعيين لانقطاع الفلاحين عن أعمالهم كما ذكر الطبري- وباستخدام هذا الأسلوب الذكي- الشبيه بالإضراب عن العمل. عمق التناقض بين الفلاحين من جهة والإقطاعيين من جهة أخرى.

أما القائد القرمطي المشهور علي بن فضل. فقد ضرب مثلاً أعلى في الصبر والجلد. وهو يتعبد في قمة جبل في يافع باليمن. وقد أظهر الزهد والورع والتقشف في حياته. واستمر على هذا السلوك الرهباني أكثر من عشر سنوات، حتى تعلقت أبصار أهل المنطقة به "وطلبوا منه النزول إلى محلاتهم، فلم يجيبهم إلى طلبهم إلا بعد شروط شرطها عليهم، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك المعاصي، والإقبال على الطاعة، فأجابوه. فأخذ عليهم المواثيق"[1].

أما أبو سعيد الجنابي، فإن أسلوب عمله النضالي في شرق الجزيرة العربية (بلاد البحرين سابقاً) يختلف عن الآخرين، لاختلاف في الوسط الاجتماعي. فقد عرفت بلاد البحرين تاريخياً بأنها "بلد الثورات والفتن". فهو وجد أرض مهيئة لمثل هذه الأفكار الثورية. لذا سرعان ما أخذ يبشر بأفكار الحركة القرمطية الثورية في صفوف الجماهير. التي كانت ذهنياً مهيئة لقبول مثل هذه الأفكار الثورية والتفاعل معها.

---

[1] يحيى بن الحسين بن القاسم "غاية الأماني في أخبار القطر اليماني"، ص192-193.

2 – تكتيكهم في وسط الديانات الأخرى:

لقد راعت الحركة الإسماعيلية – القرمطية الوسط الديني وهيمنته على نفوس الناس البسطاء. لذا طرحت أسلوب جديد وذكي، لم تستخدمه كل الحركات السرية المعروفة في التاريخ العربي – الإسلامي. أسلوباً تستطيع الحركة من خلاله أن تصل إلى تلك التجمعات الدينية وتكسب السواد الأعظم منهم إلى جانب الحركة القرمطية الثورية. فعلى الرغم من أن الحركة الإسماعيلية – القرمطية لها موقفها الواضح من الدين – كما نوضح ذلك بعد قليل – فقد استخدمت الدين غطاء للحركة كأمر لا مفر منه لجذب الأنصار ولتحقيق برنامجها الثوري ذلك. يقول الشريف أخي محسن: ووجدت في كتاب من كتبهم يعرف "بكتاب السياسة" وهذا مختصر من كتاب السياسة للقرامطة.

"فمن وجدته شيعياً فاجعل التشيع عنده دينك. واجعل الدخل عليه من جهة ظلم الأمة لعلي وولده وقتلهم الحسين وسبيهم البنات. والتبري من تميم وعدي ومن بني أمية وبين العباس، وما شاكل ذلك من الأعاجيب التي تستهلك عقولهم. فمن كان بهذه الصورة أسرع إلى إجابتك بهذا الناموس حتى يتمكن ما يحتاج إليه.

وإن وقع لك سني فعظم عنده أبا بكر وعمر واذكر فيهما فضائل، واثلب علياً وولده واذكر لهم مساوئ. وصرح له أن أبا بكر وعمر قد كان لهما في هذا الأمر الذي تلقنته إليه نسب. فإذا دخلت عليه بهذا المدخل درجته إلى ما تريده وملكته.

ومن وجدته صابئاً فداخله بالأسابيع يقرب عليك جداً.

ومن وجدته مجوسياً فقد اتفقت معه في الأصل من الدرجة الرابعة! من تعظيم النار والنور والشمس. وأتل عليه أمر السابق فإنه لهرمس الذي

يعرفونه بالنور المكنون من ظنه الجيد، والظلمة المكنونة من وهمه الرديء. فإنهم مع الصائبين أقرب الأمم إلينا. وأولاهم بنا لولا يسير صحفوه بجهلهم به.

وإن ظفرت بيهودي فادخل عليه من جهة المسيح يعني مسيح اليهود الدجال وأنه المهدي وأن عند معرفته تكون الراحة من الأعمال وترك التكليفات كما أمر بالراحة في يوم السبت. وتقرب من قلوبهم بالطعن على النصارى والمسلمين الجهال وزعمهم أن عيسى لم يولد ولا أب له. وقرر في نفوسهم أن يوسف النجار أبو عيسى وأن مريم أمه، وأن يوسف كان ينال منها ما ينال الرجال من نسائهم، وما شاكل ذلك فإنهم لا يلبثون أن يتبعوك.

وأدخل على النصارى بالطعن على اليهود والمسلمين جميعاً. وبصحة عقدهم وعرفهم تأويله. وأفسد ما قام بهم من حجة الفارقليط. وقر عندهم أنه جائي. وأنك إليه تدعوهم.

ومن رفع إليك من المنانية- نسبة إلى أتباع الفيلسوف الفارسي ماني- فإنه بحرك الذي منه تغترف. فداخلهم بوجه من الباب السادس. وأظهر من الدرجة السادسة من حدود البلاغ، وامتزاج الظلمة بالنور. إلى آخر ما في الباب من ذلك فإنك تملكهم به وتخلبهم. فإن أنست من بعضهم رشداً كشفت له الغطاء.

ومن رفع إليك من الفلاسفة. فقد علمت أن على الفلاسفة العمدة، وأنا قد اجتمعنا وهم على نواميس الأشياء وعلى القول بقدم العالم. لولا ما يخالفنا بعضهم فيه من أن للعالم مدبراً لا يعرفونه. فإذا وقع الاتفاق على أنه لا مدبر للعالم. فقد زالت الشبهة فيما بيننا وبينهم.

وإن وقع لـك ثنوي- يقصد مذهب الثنوية المتفرع من مهب المانوية- فبخ بخ! قد ظفـرت، فالمـدخل عليـه بأبطـال التوحيـد والقـول بالـسابق والتالي ووراثة أحدهما. على ما هو مرسوم في أول درجة البلاغ وثالثة"[1].

3 - الدعوات التسع:

يعتقد بعض المؤرخين، بأن الدعوات التسع، مراحل تنظيمية للحركة القرمطية. وقد أعطى بعض مـؤرخي العـصر الوسـيط، أمثـال الغـزالي، والبغدادي والدليمي أسماء لهـذه الـدعوات التـسع "التفـرس، المؤانـسة، التشكيك، التعليق، الربط، التدليس، التلبيس، الخلع، السلخ".

أما أخي محسن وهو أقدم مصادرنا حول وثائق القرامطة، الذي أورد تقريباً النص الكامل للدعوات التسع- لم يذكر لنـا تلـك الأسـماء- وهـو الأصح.

إن الهدف الأساسي من طرح القرامطة للدعوات التـسع والبلاغـات السبع، هو تفنيدهم لما جـاء بـالقرآن والـشريعة الإسـلامية عـبر مناقـشة عقلانية مسهبة استخدموا خلالها التأويل البـاطني للقـرآن- لـذا سـميت الحركة الإسـماعيلية القرمطيـة بالباطنيـة- "لكـل ظـاهر بـاطن- إخـوان الصفا".

وقد تبحر القرامطة بعلم التأويل الباطني، فلم يتركوا كلمة واحدة في القرآن إلا وأعطوا معناهـا البـاطني. وكـان غرضـهم الرئيـسي مـن هـذا التأويل للقرآن وأحكام الشريعة يتجسد في ما يلي:

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2، ص176-178.

أ- استخدام الدين- بطريقتهم الخاصة، بطريقة التأويل الباطني- لما يخدم تكتيكهم السياسي اليومي في صفوف الجماهير الكادحة.

ب- زرع بداية الشكوك، عند المسلم "أو المؤمن" تجاه معتقداته الدينية وذلك بطرح أسئلة دقيقة وعميقة محرجة له.

ج- إبطال كل ما جاء بالقرآن والشريعة الإسلامية، من قوانين وأحكام وسنن الخ. تبدأ الدعوات التسع بطرح الأسئلة المعقدة حول الدين والألوهية. مولدةً حيرة واضطراب عند المسؤول. تقول الدعوة الأولى "أن يسلك به في السؤال عن المشكلات مسلك الملحدين وشكاك. فيكثر السؤال عن تأويل الآيات ومعاني الأمور الشرعيات" فمن مسائلهم! ما معنى رمي الجمار والعدو بين الصفا والمروة؟ ولم قضت الحائض الصيام ولم تقض الصلاة؟ وما بال الله خلق الدنيا في سبعة أيام: أعجز عن خلقها في ساعة واحدة؟ وما معنى "الصراط" المضروب في القرآن مثلاً؟ "والكاتبين الحافظين" وما لنا لا نراهما؟ أخاف ربنا أن نكابره ونجاهده فأذكى العيون وأقام علينا الشهود وقيد ذلك بالقرطاس والكتابة[1].

وينتقل القرامطة- بعد ذلك- بطرح بعض الأسئلة الفلسفية تدور حول الكون والوجود.

"الإنسان، ما هو حقيقته، ومما الفرق بين حياته وحياة البهائم والحشرات، وبما معنى قول الفلاسفة: الإنسان هو العامل الصغير؟ ولم جعلت قامة الإنسان منتصبة دون الحيوان؟"[2].

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2، ص154-155.

[2] المصدر السابق، "مذاهب الإسلاميين"، ص155-156.

وعندما تبدو على الشخص علامات الارتباك والاستفسار عن الجواب الشافي لتلك الأسئلة. قالوا له "لا تعجل فإن دين الله أجل وأكبر من أن يبذل لغير أهله ويجعل عرضاً للعب".

وبعد أن تأخذ تلك الأسئلة مجراها المطلوب عند المرء المراد كسبه، يطرح القرامطة رأيهم المباشر حول الدين لزعزعة كل ما تبقى من معتقدات دينية لديه. وذلك بتبيان التناقض والاضطراب في أقوال الأنبياء فيما بينهم من جهة وإبراز مدى انسجام أقوال بعض الحكماء والفلاسفة اليونانيين. وذلك في طريقتهم في "التمييز بين الأنبياء وبين أفلاطون وأرسطو طاليس وغيرهما، وحسنوا عنده أشياء من حكمهم، وعادوا على ناصب هذه الشرائع بالاستخفاف والمذمة والطعن واللائمة". - الدعوة السادسة-

"ثم يلقن أن إبراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء الأنبياء أنبياء سياسات وشرائع. فأما أنبياء الحكمة فإن هؤلاء أخذوا عنهم، كأفلاطون، وأمثاله من الفلاسفة، فبثوا شرائعهم ليصلوا بها إلى العامة" ثم يقال له: أنظر أيهما أحكم! فلان النبي، أو فلان؟ ثم يلقنه أن في بعض أحكامهم اختلالاً أو فساداً. ثم يلقن البراءة منهم وسوء سيرتهم، وأنهم قتلوا النفس"[1] -مقتطف من الدعوة التاسعة-

4- إنشاء النقابات: مما يميز الحركة الإسماعيلية- القرمطية عن غيرها من الحركات الثورية في تلك الفترة. قدرتها الفائقة على ربط نضال المدينة بالريف، ذلك الربط المحكم الذي تمثل بوجود ركائز تنظيمية قوية في كل من المدينة والريف. تتربع على رأس تنظيمه قيادة ثورية، عرفت

---

[1] المصدر السابق، "مذاهب الإسلاميين"، ص166، 171.

كيف تستفيد من وجودها في المدن خاصة في صفوف العمال والحرفيين. فطرحت صيغة جديدة في عملها اليومي، صيغة تهدف من وراءها ضم صفوف الطبقة العاملة- حديثة المنشأ- والحرفيين في إطار نقابات مهنية، تناضل في سبيل تحقيق مطامحهم الطبقية الحقيقية. إن هذه الخطوة الجبارة، لا تدل على أن القرامطة أول من أنشأ النقابات العمالية في التاريخ العربي- الإسلامي فحسب. بل تضفي على نضالها الثوري هذا، بأنه حلقة من حلقات النضال الطبقي الحقيقي الذي خاضته الجماهير الكادحة في تلك الفترة التاريخية ضد الطغيان الطبقي.

فما هو واقع الطبقة العاملة في تلك الفترة؟ وكيف توصل القرامطة إلى إنشاء هذه النقابات وما هو دورها النضالي في الثورة القرمطية؟

1 – على أثر التطور الصناعي، برزت طبقة عمالية متمركزة في الأماكن الصناعية الرئيسية. وأخذ يزداد عددها يوماً عن يوم ويقدر عمال النسيج "بالألوف" كما انتشرت بجانبها المهن الحرفية ذات النظام الحرفي المتطور. فأصبحت- بعد ذلك- الصناعة والأعمال الحرفية ركن من أركان الاقتصاد. وكان في المدن الرئيسية بيوت العمال والحرفيين تشكل أحياء خاصة بهم واضحة على خريطة المدينة "حتى أن أحد المستشرقين الكبار يؤكد إعادة إنشاء "الطبوغرافيا" القديمة للمدينة الإسلامية، استناداً إلى أوضاعها الحرفية الراهنة ونظراً لثبات هذه الحرف ثباتاً كبيراً"[1].

2 – كانت الأوضاع المعيشية لهؤلاء العمال في غاية التردي. بفعل الأجور الضئيلة جداً والتي لا تتناسب وحاجات الإنسان الضرورية مما عمق البؤس والشقاء في صفوفهم. فالعامل في العراق مثلاً يأخذ "درهم

---

[1] كلود كاهن "تاريخ الشعوب الإسلامية"، الجزء الأول، ص201.

واحد في اليوم وفي مصر أقل من ذلك"[1]. هذه الوضعية المأساوية للعمال هي الدافع الأساسي وراء الإضرابات العمالية العديدة. فقد سجل لنا التاريخ أكثر من إضراب وتمرد للعمال "إضراب لعمال أقمشة الحرير في بغداد عندما أرادت حكومة "ال بويه" أن تفرض رسماً على الأقمشة"[2]. كذلك عمال النسيج في مدينة "تبنس في مصر، مطالبين بتحسين أوضاعهم المعيشية. وقد لعب البطريك "دونيس" "دور الوساطة وحصلوا على الزيادة"[3] وقام العمال ثانيةً عام 389 هـ بإضراب حين أعيد فرض الضريبة، واستمر إضرابهم أربعة أيام دون جدوى"[4].

3- تعتبر رسائل إخوان الصفا- الفرع القرمطي في البصرة- أكبر موسوعة علمية عرفها التاريخ في العصر الوسيط. فقد شملت هذه الموسوعة على اثني وخمسين رسالة تحتوي على موضوعات عديدة هامة. كالفلسفة، الجغرافيا، التاريخ، تاريخ الأديان، الرياضيات، الأدب، الموسيقى..الخ. وكان الهدف الرئيسي في هذه الرسائل هي جعل المعرفة في متناول الجماهير. كما خصص إخوان الصفا رسائل عديدة، تمجد العلم والعمل، وتحث الجماهير الفقيرة على اكتساب العمل المهني والحرفي، تلك المهن التي كانت سابقاً- خاصة في القرن الأول والثاني الهجريين- تحط من قيمة الإنسان في نظر التقاليد الإقطاعية السائدة آنذاك. لنستمع إلى تعريف الربح عند إخوان الصفا والذي أورده أيضاً العلامة ابن خلدون في مقدمته "واعلم يا أخي أن الناس كلهم صناع وتجار وفقراء. فالصناع الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم. وغرضهم طلب

---

[1] المصدر السابق، ص199.

[2] المصدر السابق، ص206.

[3] المصدر السابق، ص200.

[4] د. الدوري "مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي"، ص67.

العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة الدنيا. والتجار هم الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء. وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون. والأغنياء هم الذين يملكون هذه الأجسام المصنوعة الطبيعية والصناعية وغرضهم في جمعها وحفظها مخافة الفقر"[1].

4- لقد توصلت الحركة الإسماعيلية- القرمطية إلى فكرة إنشاء النقابات المهنية، من تجارب الذين سبقوهم- خاصة التجربة الرائعة للعيارين والشطار "الفتوة" ذات النظام الداخلي الدقيق والمتماسك. وكان لتنظيمات الفتوة هذه من حيث القوة والتماسك. أن استطاعت هز الخلافة العباسية وهي في عقر دارها "بغداد" وفي عهد أعظم خليفة من خلفائها "المأمون" وكان "تنظيمهم الداخلي في جوهره تنظيم حرفي"[2]. وكان الهدف الرئيسي من إنشاء هذه الخلايا الثورية للفتوة في مدينة بغداد بالذات، هو أخذ أموال التجار "بالقوة" وتوزيعها على الفقراء. ويقدر عددهم في فترة من الفترات "حوالي خمسين ألفاً"[3].

إن الحس الطبقي العفوي عند هؤلاء الفتوة، اكتسب مزاياه الإيجابية في الأهداف الطبقية الواضحة في الحركة الإسماعيلية- القرمطية. فقد طرحت الحركة القرمطية- على أثر ذلك- فكرة النقابات العمالية هذه لا لكي تضم العمال والحرفيين ضمن صيغة مهنية فحسب. بل لكي تكون منهم قوة فعالة وكبيرة تلعب دوراً مؤثراً في مساندة ونجاح ثورتهم الاجتماعية المقبلة، بجانب طبقة الفلاحين الرئيسية والبدو الفقراء. يقول

---

[1] إخوان الصفا، ج1، ص286.

[2] د. عبد العزيز الدوري "مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي"، ص77.

[3] المصدر السابق، ص76.

المستشرق ماسنيون "إن الحركة القرمطية أو الإسماعيلية هي التي أوجدت النقابات الإسلامية وأعطتها ميزاتها الخاصة. التي حافظت عليها إلى الآن. إذ يقول أن النقابات الإسلامية قبل كل شيء سلاحاً شهره دعاة القرامطة في كفاحهم، بجمع طبقة العمال في العالم الإسلامي. ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة بكل ما تمثل. وللتوصل إلى استقلال أصحاب الحرف أوجدوا النقابات وسيطروا عليها. وهكذا أصبح لها خاصتان.

أولاً: كونها نقابات للحرف.

ثانياً: كونها مؤسسات قرمطية"[1].

ويؤكد برنارد لويس على وجود النقابات. فهو يقول "ومن الجائز أن يكون الإسماعيلية هم الذين أوجدوا النقابات الإسلامية"[2].

أما المستشرق كلود كاهن، فهو يستبعد حدوث مثل هذه النقابات. وبالمقابل فهو يعترف بوجود تنظيمات حرفية، يقول كلود "مما لا شك فيه أن العالم الإسلامي تبنى تنظيماً حرفياً وأنشأ ألواناً من التعاون الاجتماعي"[3].

ولكنه يتساءل بعد ذلك "ولكن القضية التي نريد إيضاحها تتلخص فيما يلي: هل كان التنظيم حكومياً أم مستقلاً عن الدولة؟ وهل ساير الأسلوب الروماني أم شابه نظام البلديات في أوروبا"[4].

---

(1) د. عبد العزيز الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص183.

(2) برنارد لويس "العرب في التاريخ"، ص153.

(3) كلود كاهن "تاريخ الشعوب الإسلامية"، ص200.

(4) المصدر السابق، ص201.

"وغالباً ما استشهد المؤرخون بالمستشرق الكبير ماسنيون عندما تحدثوا عن الجماعات الحرفية وهو الذي قال بوجود تنظيمات حرفية دون أن يثبت رأيه تفصيلاً""[1].

النظام الداخلي للحركة الاسماعيلية:

تعرض كثير من المؤرخين إلى أسباب الخلاف الذي دب بين القرامطة والإسماعيلية "الثالثة". وقد ابتعدوا عن السبب الجوهري الذي فجر الصراع. فالبعض انطلق في تفسيره لها الخلاف فرده لاغتيال عبدان الكاتب- العقل المفكر للحركة القرمطية- واختفاء حمدان قرمط مؤسس الحركة القرمطية على يد دعاة الإسماعيلية. والبعض ينفي حدوث مثل هذا الخلاف والانقسام[*]. وهكذا يبتعدون جميعاً عن المسألة الجوهرية التي فجرت هذا الصراع داخل الحركة الإسماعيلية. فاغتيال عبدان الكاتب واختفاء حمدان قرمط، ما هو إلا نتيجة للسبب الأول والمباشر في الصراع الحاد بين الفرع الإسماعيلي في العراق- الذي سمي فيما بعد بالحركة القرمطية- وبين المركز الرئيسي للحركة في السلمية حول طبيعة النظام الداخلي وانتقاده بشدة من قبل قرامطة العراق، والذي أدين في نهاية المطاف- عبر عدم استجابة الإمام سعيد لملاحظات القرامطة النقدية هذه- إلى الطلاق النهائي بين الحركة القرمطية وبين الإسماعيلية الثالثة- الآنفة الذكر- .

---

(1) المصدر السابق، ص203.

(*) مثل عبد الفتاح عليان في كتابه "قرامطة العراق".

فما هو النظام الداخلي الإسماعيلي (الأول؟). وما هي ملاحظات قرامطة العراق النقدية عليه؟ وما هي الصيغة الجديدة التي طرحها القرامطة كبديل للنظام الداخلي السابق؟ وما هو موقف المركز الرئيسي الإسماعيلي في السلمية في سوريا من هذه الملاحظات؟

النظام الداخلي الإسماعيلي: يؤكد النظام الداخلي للحركة الإسماعيلية، على الطاعة العمياء من قبل كافة المراتب التنظيمية- الاثني عشر مرتبة- للإمام كما أنه- أي الإمام- سلطته مطلقة على الحركة. ولا يجوز لأي عضو في الحركة مهما كانت قدراته الفكرية والتنظيمية وتفانيه في سبيل الحركة، أن يصل للمرتبة الأولى "الإمام". فهذا المنصب محصور في يد عائلة عبد الله ابن ميمون القداح- والذي ادعى حفيده عبيد الله المهدي عندما أصبح خليفة في المغرب العربي بأنه من سلالة الرسول من ابنته فاطمة. لذا أطلق على دولته الدولة الفاطمية- وقد مارست هذه العائلة الوصاية على الحركة الإسماعيلية، مبررين ذلك بأن جدهم ميمون القداح واضع الأساس النظري والتنظيمي للحركة الإسماعيلية من جهة. وضرورة تستر الإمام عن أعين السلطة العباسية وعدم معرفته إلا من المقربين إليه من جهة ثانية. ولكن تطور الحركة القرمطية في العراق وتطبيقاتها الاجتماعية الجذرية في الكوفة جعلتها في النهاية تصطدم مع عقلية الوصاية هذه. وتكشف زيف ادعائهم وراثة الإمامة.

المراتب التنظيمية: تتكون المراتب التنظيمية للدعوة الإسماعيلية من اثني عشر مرتبة وهي حسب التسلسل الهرمي كما ذكرها عارف تامر في كتابه "االقرامطة":

1- الإمام: "وهو غير مقيد بسلطة. وسلطته على الحركة مطلقة. وإطاعة أوامره فرض إلزامي، ولا يحق لأي كان الوصول إلى هذه المرتبة العليا ما عدا أولاد الإمام المستور".

2- الحجة: "وهو نائب الإمام ولا يحق للحجة أن يصبح إماماً".

3- داعي الدعاة: "وهو رئيس الدعاة المباشر والمسؤول الأول أمام الحجة عن توزيعاتهم ومدى نجاحهم في الأقاليم والجزائر".

4- داعي البلاغ: "وهو المسؤول عن تبليغ الأوامر التي يرسلها داعي الدعاة إلى الأقاليم وعن سريتها ووصولها".

5- الداعي المطلق أو النقيب: "هو صاحب المرتبة التي تمنحه الصلاحية بالسفر إلى الأقاليم التي يراها بحاجة إليه".

6- الداعي المأذون: "ورتبته أدنى من مرتبة الداعي المطلق. ويخضع إلى ترتيباته ويأخذ عنه العلوم التي رتبها في الأقاليم. وإن ذهابه وتنقلاته في الجزر يحتاج إلى مأذونية من داعي الدعاة".

7- الداعي المحصور: "ويعتبر مسؤولاً أمام الداعي المطلق عن شؤون التبليغ في منطقة معينة لا يتعداها. أي أنه محصور في منطقة معينة لا يستطيع الانتقال منها إلا بعد أخذ مأذونية من داعي الدعاة".

8- الجناح الأيمن:

9- الجناح الأيسر: "هذان الحدان ملحقان بصورة دائمة بالداعي المطلق، فهما جناحاه يقدمان له الخدمات أثناء جولاته في الأقاليم للدعاية".

10- المكاسر: "تعطى رتبة مكاسر لكل مكالب، تفقه في الدعوة ووصل إلى مدخل الفلسفة فأصبح له القوة على المجادلة وخاصة بين طبقات العامة وهو تابع مباشرة إلى داعي الدعاة".

11- المكالب: "وهي أعلى من مرتبة المستجيب. ووظيفة المكالب هي التجسس واستنشاق الأخبار المتعلقة بالدعوة. ثم سحب الأفراد الذين لديهم التقبل للدخول في الدعوة إلى مقام داعي الدعاة".

12- المستجيب: "أول رتبة يصل إليها المنتسب حديثاً إلى الدعوة"[1].

ملاحظات القرامطة على النظام:

كان للنشاط الفعال والمثمر للفرع الإسماعيلي في العراق- والذين أطلقوا على أنفسهم بعد هذا الخلاف القرامطة- أن امتلك تجربة ثورية أغنت الفكر الإسماعيلي على المستوى النظري والعملي. خاصة وأن قرامطة العراق هم الأوائل في كافة فروع الحركة الإسماعيلية الذين بادروا بإنشاء مجتمع الألفة "الاشتراكي" في مدينة الكوفة، وإدارة هذا المجتمع الصغير بشكل ديمقراطي عبر مجلس استشاري مكون من ستة أعضاء منتخبين من قبل الأعضاء أنفسهم وهم "حمدان قرمط، عبدان الكاتب، عكرمة البابلي جليندي الرازي، إسحاق السوراني، عطيف الفيل"[2].

وكان لنجاح التجربة الثورية لقرامطة العراق- من سنة 277-287هـ- أن كشفت النواحي السلبية في الحركة الإسماعيلية، والمتمثلة بالنظام الداخلي الذي لا يتمشى مع فكر الحركة وتطبيقاتها الاجتماعية الجديدة "مجتمع الألفة الإنساني". وإن استمرار الحركة الإسماعيلية على

---

[1] عارف تامر "القرامطة"، ص102-106.

[2] المقريزي "أتعاظ الحنفا"، ص155.

نهج النظام الداخلي السابق والتمسك به، يعني وضع مصير الحركة وإنجازاتها الثورية في يد شخص ليس من مصالحه أن تتم هذه الإجراءات الثورية. ألا وهو الإمام سعيد الملقب "بعبيد الله المهدي". لذا بادر القرامطة بطرح ملاحظاتهم الثورية والصحيحة لإنقاذ الحركة من تسلط العقلية الفردية والوراثية. فإذا كان هنالك مبرر في السابق لمثل هذه السلطة المطلقة للإمام على الحركة. فلم تعد الآن- عبر طموحات الجماهير وتطبيقهم مجتمع الألفة- تتلاءم مع الأوضاع الجديدة للحركة. من هذه الزاوية قدم القرامطة ملاحظاتهم هذه:

1- انتخاب مجلس استشاري لإدارة الحركة الإسماعيلية لكافة فروعها.

2- يتكون هذا المجلس الاستشاري من ستة أعضاء.

3- يتم انتخاب أعضاء المجلس بشكل ديمقراطي ومن قبل أعضاء الحركة أنفسهم.

4- إسقاط رتبة "الإمامة".

5- إسقاط الوراثة في الحركة الإسماعيلية.

6- إسقاط المراتب التنظيمية السابقة "الاثني عشر مرتبة".

7- طرح نظام داخلي جديد للحركة الإسماعيلية.

وقد قدم القرامطة مسودة لهذا النظام الداخلي الجديد- سنتعرض إليه بعد قليل.

ما هو موقف المركز من الملاحظات:

لقد وقعت هذه الملاحظات على نفس الإمام سعيد، كالصاعقة مولدةً، ردود فعل سريعة رهيبة تمثلت باستخدام الأساليب الانتهازية

"الميكافيلية" في اغتيال عبدان الكاتب- ويقال أن عبدان هو واضع مسودة النظام الداخلي الجديد- في نفس السنة التي قدم فيها قرامطة العراق ملاحظاتهم هذه. وتبعها اختفاء مؤسس الحركة الإسماعيلية في العراق حمدان بن الأشعث "اللقب بالقرمط". يقول كاتب إسماعيلي حديث "أن فريقاً من القرامطة المتطرف. كان يقول بضرورة إنشاء مجلس استشاري لإدارة الدعوة بطريق الانتخاب. وهذا ما جعل عبيد الله المهدي يثور على هذا الفريق ويعلن الحرب عليه، مبعداً إياه عن المراكز الحساسة بالدعوة"[1].

وقد وقف قرامطة العراق على أثر هذه الاغتيالات والتصفيات في صفوفهم. موقف المدين والمستنكر لأساليب الإمام الوصولية. وأعلنوا انفصالهم النهائي عن الحركة الإسماعيلية. كما اتخذ تلميذ حمدان وعبدان، القائد الملهم أبو سعيد الجنابي- مؤسس الدولة القرمطية في شرقي الجزيرة العربية- موقفاً مديناً للمركز الرئيسي الإسماعيلي في السلمية. وإنشاء دولة مستقلة حقيقية، أعلن اسمها الصريح باسم الدولة القرمطية- نسبةً إلى حمدان قرمط مؤسس الحركة القرمطية في العراق- وقد لعب أبو سعيد الجنابي دوراً كبيراً في التأثير على القائد علي بن فضل في اليمن. وأعلن الأخير انضمامه إلى القرامطة وخلع طاعة عبيد الله المهدي سنة 294هـ.

وهكذا لم يبق أمام إمام الإسماعيلية "الثالثة" وطأة قدم في المشرق العربي خاصةً وأن زكرويه بن مهرويه القرمطي، قام بالهجوم الجريء على السلمية واغتيال أقارب الإمام سعيد. بعد أن استخدم الإمام سعيد (عبيد الله المهدي)- سابقاً- زكرويه في اغتيال عبدان وبهجوم زكرويه هذا على السلمية، تعرت حقيقة الإمام سعيد (عبيد الله) الذي حاول لصق نسبه بولد محمد بن إسماعيل. وغادر سوريا إلى المغرب العربي، بعد أن استدعاه

---

[1] عارف تامر "القرامطة"، ص126.

الداعي الإسماعيلي الكبير أبو عبد الله الشيعي، الذي نجح في تكوين دولة هناك. وقد استلم الإمام سعيد (عبيد الله المهدي)- الذي لم ينكشف بعد لدى عبد الله الشيعي- الحكم في القيروان وأعلن الدولة الفاطمية. بعد أن أعدم عبد الله الشيعي المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية في المغرب العربي.

النظام الداخلي القرمطي:

إن وثيقة النظام الداخلي التي طرحها القرامطة- ويقال أن عبدان الكاتب واضع مسودتها- على الحركة الإسماعيلية كبديل للنظام الداخلي السابق، أدت في نهاية المطاف- بعد رفضها من قبل الإمام الإسماعيلي سعيد- إلى الطلاق النهائي بين الحركة القرمطية وبين الإسماعيلية "الثالثة الإصلاحية". تقول أن هذه الوثيقة التي طرحها القرامطة، لا تعتبر نظاماً داخلياً بالمفهوم الحزبي الحديث. ولا تشبه لا من قريب ولا من بعيد النظام الداخلي للحركة الإسماعيلية. بل تعتبر خطة عمل، خطة تنظيمية يجب على الكادر القرمطي التمسك والتقيد بما جاء بها من أساليب تكتيكية في العمل السياسي في وسط الجماهير الشعبية. فهي- أي الوثيقة- تخلو من أي درجات أو مراتب تنظيمية "دنيا وعليا". عكس النظام الداخلي الإسماعيلي ذو الاثني عشر مرتبة. وتكون هذه الوثيقة من سبع بلاغات. وضعت خصيصاً لشرح الفكر الفلسفي والاجتماعي القرمطيين، بأسلوب جماهيري مبسط "من الأبسط إلى الأعقد" فالبلاغ الأول والثاني والثالث يغلب عليهم الطابع الديني أما البلاغات الثلاثة الأخرى فيغلب عليهم الطابع الفلسفي المادي الهرطقي. وإنكار تام لما جاء في البلاغات الثلاثة الأولى. وكان التخلف السياسي والاجتماعي في صفوف الجماهير آنذاك، هو الدافع الأساسي من وراء طرح القرامطة لهذه البلاغات السبع.

والتدرج بالعنصر المراد كسبه. "درجة درجة". وعلى مدى نشاط وتفاعل العنصر مع كل بلاغ، مع كل مفهوم جديد يحتويه ذلك البلاغ ينال العنصر العضوية في داخل الحركة القرمطية. وقد حدد القرامطة الفترة الزمنية لنيل العضوية كأقصى حد أربع سنوات مع العنصر المراد كسبه.

وهذه الفترة الزمنية لا تنطبق على الجميع. فإذا التقى مثلاً الكادر القرمطي بشخص "ملحد" أو آخر يمتلك مستوى ثقافي وسياسي جيدين. فإنه- أي الكادر- يفاتحه رأساً بالبلاغ الخامس أو السادس الذي يتضمن المفهوم المادي القرمطي تجاه العالم والكون. ومتى اطمأن منه يفاتحه بالبلاغ السابع. تقول إحدى وثائق القرامطة "وإذا التقيت بالمنانية- نسبة إلى أتباع الفيلسوف ماني- فادخل عليه من درجة البلاغ السادس ومن أنست منه رشداً فاكشف له الغطاء". أي البلاغ السابع. ومتى نال الشخص العضوية له الحق في الانتخاب والترشيح.

هذه هي نص البلاغات السبع، كما نقلها لنا أخي محسن من كتاب القرامطة المسمى "بكتاب السياسة" ونقلها النويري في كتابه "نهاية الإرب".

1- البلاغ الأول: للعامة.

2- البلاغ الثاني: لفوق هؤلاء قليلاً.

3- البلاغ الثالث: لمن دخل في المذهب سنة.

4- البلاغ الرابع: لمن دخل في المذهب سنتين.

5- البلاغ الخامس: لمن دخل في المذهب أربع سنين.

6- البلاغ السادس: لمن دخل في المذهب أربع سنين.

7- البلاغ السابع: وفيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر"[1].

---

[1] د. عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، ص186-187.

شرح البلاغات السبع "النظام الداخلي القرمطي":

البلاغ الأول:

وفيه إرشادات أولية للداعي القرمطي "الكادر" لأخذ الاحتياطات اللازمة من العنصر المراد كسبه. والتقيد بالمسلك الثوري في صفوف الجماهير الكادحة.

يقول البلاغ الأول "واتخذ غليظ العهود ووكيد الإيمان وشديد المواثيق جنة لك وحصناً. ولا تهجم على مستجيبك بالأشياء التي تهز عقولهم حتى ترقيهم إلى المراتب حالاً فحالاً ودرجهم درجة درجة: فواحداً لا تزده على التشيع والإيمان بمحمد بن إسماعيل شيئاً، وأنه حي، لا تجاوز به هذا الحد. وأظهر لهم العفاف عن الدراهم والدينار. وخفف عليهم وطأتك. ومره بالصلاة السبعين. وحذره الكذب والزنا واللواط وشرب الخمر. وعليك في أمره بالرفق والتؤدة والمداراة يكن لك عوناً على دهرك وعلى من يعاديك أو يتغير عليك من أصحابك وينافسك، فلا تخرجه عن عبادة إلهه، والتدثر بشريعته. والقول بإمامة علي وبنيه محمد بن إسماعيل بن جعفر. ودقه بالصلاة دقاً".

البلاغ الثاني:

ويتضمن بداية التأويل الباطني للقرآن. وأن الإمام محمد بن إسماعيل سينسخ شريعة محمد وهو نبي وحكم على كل الرسل الذين سبقوه. ويتضمن هذا البلاغ أيضاً إسقاط إمامة علي الذي أكد عليها في البلاغ الأول.

"وآخر ترقية من ذلك على نسخ شريعة محمد، وأن السابع هو الحكم للرسل. وأنه ينطق كما نطقوا، ويأتي بأمر جديد، وأن محمد- أي النبي- صاحب الدور السادس- وأن صاحب الدور السابع محمد بن إسماعيل وهو الأخير- وأن علياً لم يكن إماماً. وحسن القول، فإن هذا باب كبير وعلم عظيم يرجى الارتقاء إلى ما هو أكبر منه. ويعينك على زوال ما جاء من قبله من وجود النبوات على المنهاج الذي هو عليه. وقليل من ترقية من هذا الباب إلى معرفة أم القرآن ومؤلفه وسننه".

البلاغ الثالث:

"وأخر ترقية إلى أوائل درج التوحيد. وتدخل عليه بما تضمنه كتاب "الدرس الشافي للنفس" من أن لا إله لا صفة ولا موصوف. فإن ذلك مما يعينك على القول بإلهية تستحقها عند البلاغ إلى ذلك. ومن رقيته إلى هذه المنزلة فعرفه- حسب ما عرفناك- حقيقة من أمر الإمام، وأن إسماعيل ومحمد ابنه من أبوابه. ففي ذلك عون لك على إبطال إمامة ولد علي بن أبي طالب عند البلوغ. والرجوع إلى القول بالحق لأهله.

البلاغ الرابع:

وهو المدخل- أو المقدمة حسب تعبير القرامطة- إلى طرح مفهومهم المادي وبإنكار كل الكتب المقدسة التي يزعمون أنها منزلة من عند الله. يقول البلاغ "وإياك أن تغتر بكثير ممن يبلغ معك إلى هذه المنزلة، فترقيه إلى غيرها- إلا من بعد طول المؤانسة والمدارسة واستحكام الثقة. فإن ذلك يكون عوناً لك عند بلاغه على تعطيل الكتب التي يزعمون أنها منزلة من عند الله. فيكون هذا نعم المقدمة."

البلاغ الخامس:

يؤكد هذا البلاغ على نسف المفاهيم الدينية التي طرحت سابقاً وعلى موت محمد بن إسماعيل "المهدي المنتظر" وإنكار البعث والميعاد.

يقول البلاغ "وآخر ترقية من هذا إلى ما هو أعلى منه. فإن القائم قد مات. وأنه يقوم روحانياً وأن الخلق يرجعون إليه بصورة روحانية، وأنه يفصل في العباد بأمر الله عز وجل ويشفي من الكافرين للمؤمنين بالصور الروحانية. فإن ذلك يكون لك عوناً عند بلاغه على إبطال الميعاد الذي يزعمونه والنشور من القبور."

البلاغ السادس:

في هذا البلاغ يطرح القرامطة مفهومهم الفلسفي المادي الهرطقي تجاه الكون والعالم، للعنصر الذي تفاعل مع البلاغات السابقة ضد مفهوم الإيديولوجية الغيبية الإقطاعية يقول البلاغ:

"وآخر ترقية من هذا إلى إبطال الملائكة في السماء والجن في الأرض. فإنه قبل آدم بشر كثير، وتقيم على ذلك الدلائل المرسومة في كتب شيوخنا المتقدمين، فإن ذلك يعينك في وقت بلاغه على تسهيل التعطيل لله والإرسال بالملائكة إلى الأنبياء والرجوع به إلى الحق والقول بقدم العالم."[1].

البلاغ السابع:

وهو البلاغ الذي يتضمن حقيقة برنامجهم الاجتماعي الثوري في السعي لبناء مجتمع تنتفي فيه الفوارق الطبقية وتتحقق المساواة الفعلية على

---

[1] عبد الرحمن بدوي، المصدر السابق، ص178-179.

أرض الواقع. لذا حرص القرامطة كل الحرص على نتيجة مذهبهم الاجتماعي هذا. وعدم الإطلاع عليه من قبل أي إنسان كان، إلا بعد أن يقطع شوطاً من الزمن في داخل الحركة القرمطية. وأن يتفاعل تفاعلاً تاماً مع البلاغات الست- الآنفة الذكر- يكشف له القرامطة الغطاء عن مذهبهم الاجتماعي. وليس كل ملحد في نظر القرامطة، قابل للتفاعل مع أهدافهم الطبقية الواضحة. وهذا ما نستنتجه من بلاغات القرامطة أنفسهم. فالإلحاد يظهر بوضوح في البلاغ الخامس والسادس. وهذا يدل على النظرة الطبقية الثاقبة للقرامطة.

فليس من الضروري أن يكون كل ملحد "قرمطياً". فالرازي يعتبر من أبرز الملاحدة. ومع ذلك له مواقف نقدية تجاه تجربة القرامطة في شرقي الجزيرة العربية. وبالأخص تجاه أبو طاهر القرمطي. وكذلك أبو العلاء المعري، له مواقف نقدية ساخرة تجاه القرامطة، أليس هو القائل:

ودين مكة، طاوعنا أئمته عصراً … فما بال دين جاء من هجرا!

أبو العلاء المعري على الرغم من حالة الزهد والتقشف اللتان تحيطان به "فإنه يملك ضياعاً وبساتين وأموالاً طائلة" كما ذكر ذلك ناصر خسرو وأكدها الدكتور طه حسين. فلا يستغرب القرامطة هذا الموقف الطبقي من هذا المفكر والشاعر الكبير.

يقول ابن النديم- مؤلف الفهرست "وقد قرأته- أي البلاغ السابع- فرأيتَ فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها.".

ولكن- للأسف الشديد- لم ينقل لنا ابن النديم النص الحرفي لهذا البلاغ فعلى الرغم من فقدان النص الأصلي لهذا البلاغ، فباستطاعة المرء أن يستنتج ما يتضمنه ذلك البلاغ من خلال التطبيقات الجذرية التي تمت

في مجتمع الألفة في الكوفة والمجتمع القرمطي في شرقي الجزيرة العربية فإذا كان البلاغ السابع يتضمن مطلبهم الاجتماعي الأكبر وذلك في بناء مجتمع خالي من كل الشرور الطبقية نقول إذا كان البلاغ يتضمن ذلك، فقد تحدثنا عن برنامج القرامطة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في حلقتنا الماضية(*).

موقف القرامطة من الدين:

لقد اتخذ القرامطة موقفاً علنياً وصريحاً من الدين. موقفاً جاء منسجماً مع مفهومهم الفلسفي تجاه الكون والعالم. مما ولد ردود فعل رهيبة عند كافة مؤرخي الفكر الرسمي- القدماء والمحدثين- الذين استشاطوا غضباً من جراء هذه المواقف النقدية العلنية تجاه الدين. ولم يكن دفاع هؤلاء المؤرخين نابع بالأساس من الغيور على الدين الحنيف! بل نابعاً في حقيقته من الدفاع عن مصالحهم الطبقية أولاً وأخيراً.

وقد يتساءل المرء. هل أن القرامطة الفرقة الوحيدة التي تصدت إلى الدين؟. أم أن هناك فرق أخرى لها نفس الموقف النقدي؟ ولماذا ركزت الأنظار على موقف الحركة القرمطية بالذات؟.

شهد المجتمع العربي الإسلامي في نهاية القرنين الثاني والثالث الهجريين، نهوض فكري واسع وصراع إيديولوجي عنيف. هز المجتمع العربي- الإسلامي وإيديولوجيته الرسمية من الجذور. وبرز ضمن هذا الوسط المتشابك والمتصارع ثلاثة تيارات رئيسية، تقف في صف واحد، وبدرجات مختلفة في نضالها المرير ضد التيار السني السلفي.

(*) راجع الجزيرة الجديدة، العدد السادس.

أ- التيار المعتزلي.
ب- التيار الإلحادي.
ج- التيار القرمطي.

أ- التيار المعتزلي: مثل التيار المعتزلي، ضرورة تاريخية تتناسب ومستوى التطور الحضاري في تلك الحقبة من التاريخ. بفعل ما احتوته في أحشائها من تطورات خطيرة على المستوى الاقتصادي والثقافي والسياسي. وما يتطلب هذا التطور من آفاق فكرية رحبة تساعده على النهوض والوقوف أمام التيار السني السلفي، المعيق لنمو هذه البذور الجديدة في أحشاء المجتمع العربي- الإسلامي. من هنا ولد التيار المعتزلي، الذي يمثل بحق التيار العقلي داخل إطار الإيديولوجية الغيبية الإقطاعية في نضاله المرير ضد التيار السني السلفي. والذي مثل أيضاً من وجهة النظر الطبقية، مصالح وطموحات البرجوازية التجارية، التي انتعشت- نوعاً ما- في تلك الحقبة، "مكونة من رأسمال قوي وفعال في عملية تجديد الإنتاج" من هنا تكمن أهمية الفكر المعتزلي، في مواقفه الصريحة والجريئة ضد القدرية والجبرية. فقد استخدموا- أي المعتزلة- العقل في الدفاع عن الدين ما يتلاءم مع سمة عصرهم، ما يتلاءم ومصالح البرجوازية التجارية الناشئة التي تطمح للوصول إلى السلطة.. وقد تم لها ذلك في عهد الخليفة المأمون والمعتصم والواثق. وقد ظهر ضمن وسطهم. مفكرين إلحاديين، لهم نظرات إلحادية واضحة أمثال المفكر المعتزلي المشهور إبراهيم النظام المتوفى سنة 231هـ وأبو الهذيل العلاف المتوفى سنة 226هـ.

ب- التيار الإلحادي: إن الحملة الدموية الشنيعة التي قادها الخليفة العباسي المهدي ثم الهادي من سنة 163- 170هـ في محاربة الزنادقة. لم تكن في حقيقتها إلا محاربة ذوي الأديان الأخرى. كالزرادشتية، والمانوية، وهؤلاء لم يكونوا في حقيقتهم زنادقة بالمعنى الحرفي للكلمة. أما التيار الإلحادي، الذي أخذت دائرة أنصاره تتسع- بشكل واضح- في أوائل القرن الثالث الهجري، ووصل إلى ذروته على يد "أبو عيسى الوراق" و"ابن الراوندي الملحد المشهور المتوفى سنة 250هـ" و"أبو بكر زكريا الرازي الطبيب والكيمائي الأول في عصره المتوفى سنة 309هـ". فقد ألف هؤلاء كتباً عديدة تناقش بطلان النبوة والنقد للكتب المقدسة(*).

وهكذا يتضح أن تركيز هؤلاء المؤرخين على الحركة القرمطية أكثر من غيرها آت من كونها حركة ثورية. استلمت السلطة السياسية في أكثر من بلد. وانتهجت سياسة اقتصادية اقتلعت مصالح الطبقات المستغلة.

فما هي الإجراءات الثورية التي اتخذتها الجمهورية القرمطية العلمانية في شرقي الجزيرة العربية في صدد الدين؟. وهل مارس القرامطة الاضطهاد الديني؟

إن الإجراءات التي طبقتها الجمهورية القرمطية في صدد الدين هي بمثابة إجراءات أي دولة علمانية حقيقية في عصرنا الراهن. وقد تمثلت هذه الإجراءات فيما يلي:

1- فصل الدين عن الدولة. وقيام جمهورية قرمطية علمانية جدلية- أي ملحدة- .

(*) راجع الكتب التالية: رسائل فلسفية لأبو بكر زكريا الرازي، وتاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي. الانتصار للخياط.

2- إلغاء كل القوانين الشرعية المستمدة من روح الشريعة الإسلامية.

3- إلغاء كل القوانين القائمة على الاضطهاد الديني، للديانات الأخرى، كالمسيحية واليهودية والزرادشتية.

4- إلغاء كل "ما يستند على هذه الأديان من الحدود والسنن المتعلقة بالأكل والشرب والملبس"[1].

5- تعتبر الدولة القرمطية، الدين قضية شخصية، تهم الأشخاص أنفسهم، وللمؤمنين الحرية الكاملة أن يمارسوا الدين وطقوسه بالشكل الذي يناسبهم. بشرط ألا يستخدموا الدين للوقوف في وجه إجراءات الثورة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

6- إن بناء المساجد وتقديم المساعدات لرجال الدين "الكسالى" ليست من مسؤولية وصلاحية الحكومة القرمطية. بل مسؤولية وصلاحية المؤمنين أنفسهم. فالنظام القرمطي لا يمانع إطلاقاً في بناء هذه المساجد على نفقات المؤمنين- كما سنوضح ذلك بعد قليل- .

7- المساواة الفعلية بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات.

8- يتم الزواج والطلاق عبر قوانين مدنية.

9- القيام بنشر الفكر القرمطي الثوري، عبر مؤسسات الدولة، لرفع المستوى الفكري والثقافي عند الجماهير الشعبية، لئلا تكون فريسة سهلة للأفكار الغيبية التي تحاول الثورة المضادة استغلالها ضد الثورة. لذا أنشأت الحكومة القرمطية المدارس الحكومية العديدة، وأقامت أيضاً دوراً خاصة لتربية الأطفال منذ الصغر تحت إشراف الدولة ومراقبتها. -كما أوضحنا ذلك في الفصل السابق- .

---

[1] بندلي جوزي "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام"، ص209.

هل مارس القرامطة الاضطهاد الديني؟

يؤخذ البعض على أن القرامطة "كان هلاك الدين على أيديهم"[1]. ومارسوا شتى أنواع الاضطهاد بحق رجال الدين! وعامة المسلمين على السواء! ومنعوا بناء المساجد! وإقامة صلوات المصلين!.

فهل تم هذا حقاً في الجمهورية القرمطية في شرقي الجزيرة العربية؟.

كان الهدف النهائي لكفاح القرامطة الطويل والمرير- ضد كافة أعدائهم الطبقيين- والذي توج أخيراً في نجاحهم الأكبر في شرقي الجزيرة العربية، هو تحقيق مطلبهم الاجتماعي الأكبر، تحقيق مجتمع المساواة الفعلية، وقيام فردوسهم على الأرض. أليس هم القائلين:

"وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب؟"

ويصف المقريزي المساواة التي تمت داخل المجتمع القرمطي، المجتمع القائم على الحاجة "وجرى على أصحابه- يقصد أبو سعيد الجنابي مؤسس الجمهورية- جرايات فلم يكن يصل لأحد غير ما يطعمه"[2].

فهل يعقل من أن مجتمع قائم على الحاجة، يقدم مساعدات لرجال الدين "الكسالى" وأن تأخذ الحكومة القرمطية على عاتقها بناء المساجد! تلك العملية التي تتنافى مع موقفهم الفلسفي والإيديولوجي. وهل حاول أحد من أصحاب التقوى "المؤمنين" بناء مسجد على حسابه الخاص ورفضت السلطة القرمطية ذلك؟

إن هنالك أكثر من شاهد تاريخي، على أن القرامطة لم يمارسوا الاضطهاد الديني ولم يتدخلوا بالمعتقدات الشخصية ولم يمنعوا أحد من

---

[1] جمال الدين بن ظافر "أخبار الدول المنقطعة"، ص1.

[2] المقريزي "اتعاظ الحنفا"، ص161.

أداء الصلوات، وبناء المساجد على حسابهم الخاص. يقول الرحالة ناصر خسرو الذي زار القرامطة سنة 443هـ "لم يعد في الإحساء أي مسجد تقام فيه صلاة الجمعة والخطبة لا تلقى ولا الصلوات تصلى، ولا يمنع أحد من أداء الصلوات المشروعة ولكن مواطني المكان لا يمارسون هذه الفريضة"[1]. ويضيف ناصر خسرو قائلاً "ومع ذلك فقد بني مسجد واحد على حساب رجل فارسي سني. اسمه علي بن أحمد". لاستقبال الحجاج.

وكذلك في سنة 460هـ- أي قبل سقوط التجربة القرمطية بسبع أو عشر سنوات- "قدم بعض الأشخاص إلى حاكم جزيرة أوال- البحرين الحالية- واسمه ابن عرهم أن يتدخل لدى حكومة الإحساء للسماح ببناء مسجد، لأن التجار الغرباء كانوا يتجنبون النزول في جزيرة أوال (البحرين) بسبب عدم وجود مسجد صالح لصلاة الجمعة. وأعطي الإذن وبني المسجد"[2].

وهكذا إذن فالجمهورية القرمطية- العلمانية، لم تمارس إطلاقاً الاضطهاد الديني. بل سخرت كل امكانياتها لنشر الفكر القرمطي الثوري في صفوف الشعب. وما أدت إليه هذه العملية من ترسيخ جذور القناعة عند الجماهير الكادحة يتجاوز إطار الإيديولوجية الغيبية الإقطاعية ومعتقداتها.

---

[1] ناصر خسرو "سفر نامة"، ص143.

[2] د. عبد الرحمن بدوي "مذاهب الإسلاميين"، ج2، ص149.

قضية الحجر الأسود:

أثار هجوم القرامطة على مكة سنة 317هـ، موجة استنكار عارمة ليس من قبل المؤرخين الرسميين. بل من قبل بعض الكتاب الشباب "المتحمسين" نوعاً ما للتجربة القرمطية الثورية، والذين أدانوا سلوك القرامطة تجاه هجومهم على مكة وخرقهم الشريعة الإسلامية! وانتهاك حرمة الكعبة! الذي لا مبرر له حسب زعمهم!.

إن الهجوم القرمطي الجريء على مكة بقيادة القائد أبو طاهر القرمطي، رئيس الجمهورية القرمطية، لم يكن لهدف ديني بحد ذاته. بل له دوافعه الاقتصادية والسياسية كما وضح القرامطة ذلك بأنفسهم.

أ- استشاط القرامطة غضباً، لما يجري في الكعبة في مراسيم الحج في كل سنة، من الثناء على الخليفة العباسي وتبريرهم للاضطهاد الطبقي عبر "مشايخ فجرة- أبو طاهر القرمطي". ثم البدء بالطعن والتقريح بالنظام القرمطي، مستغلين الحشود الهائلة من الحجاج في هذه المناسبة من كل عام.

كل هذا يجري في منطقة واقعة ضمن الأراضي الجمهورية القرمطية- وكما هو معروف أن الجمهورية القرمطية تمتد من الطائف إلى البحرين- . لذا صمم القرامطة على الهجوم على مكة أثناء مناسك الحج- وإعطائهم درساً قاسياً لاستغلالهم هذه الفرصة الدينية بالطعن عليهم وعلى مبادئهم- للقضاء على نفوذ الخليفة العباسي من جهة وضم تلك الأراضي المتبقية من جزيرة العرب إلى الجمهورية القرمطية.

ب- لم يكن القرامطة الفرقة الوحيدة التي خرقت حرمة الكعبة وسحقت أعدائها "فقد انتهكت حرمة الكعبة مرتين وضربت بالمنجانيق في العصر الأموي. لذلك وجب على الدارسين التخفيف من غلوائهم

والنظر إلى هذا الحادث على أنه أمر طبيعي أملته طبيعة العصر وظروفه السياسية."[1].

ج- يتضح الجانب الاقتصادي في هذه المسألة- مسألة الهجوم على مكة- في الإجراء الذي فرضه القرامطة كضريبة على "كل حاج دينار"[2] وقبل كل جمل محمل يذهب إلى مكة "خمسة دنانير"[3]. وهذه الضريبة التي فرضها القرامطة ترمي إلى هدفين أساسيين:

1- إشعار الحجاج بأنهم في أرض "قرمطية" لذا وجب عليهم التمسك بقواعد الأدب وعدم التشهير والطعن في نظامهم. وأن يؤدوا مراسيم الحج بكل هدوء وحسب ما تتطلبه الشريعة الإسلامية- وعدم كيل المديح للخليفة العباسي.

2- تهدف الحكومة القرمطية من جراء أخذ هذه الضريبة، توفير دخل ثابت إلى ميزانيتها، لكي تقوم بإيفاء التزاماتها تجاه جماهيرها.

وقد أخذت الحكومة القرمطية- مقابل تلك الضريبة- على عاتقها خفارة قوافل الحجاج وحراستها سواء القادمة من العراق أو الشام لحفظ سلامتهم من أي غزو تقوم به بعض القبائل من جهة والإشراف المباشر على مراسيم الحج من جهة ثانية. وقد استمرت حراسة وإشراف القرامطة على قوافل الحجاج قرابة نصف قرن من الزمن.

أما ما هو تفسير أخذ القرامطة الحجر الأسود، وإبقاءه اثنين وعشرين سنة في بلادهم. فالقرامطة يعتقدون بأن تقبيل الحجر الأسود ضرب من الوثنية، وعادة جاهلية يجب القضاء عليها. ولم يكن القرامطة الوحيدين الذين لهم موقف من الحجر الأسود، فقد أعطى كثير من المفكرين في ذلك

---

[1] محمود إسماعيل "الحركات السرية في الإسلام".

[2] ابن مسكويه "تجارب الأمم"، الجزء الثاني، ص60.

[3] ابن الجوزي "المنتظم"، الجزء السادس، ص296.

العصر رأيهم في الحجر الأسود، أمثال الرازي وابن الراوندي وعبد المسيح الكندي والحلاج والمعري.

يقول أبو العلاء المعري ساخراً:

وقوم أتوا من أقاصي البلاد   لرمي الجمار ولثم الحجر

وكانت الفرق الصوفية تستنكر تقبيل الحجر الأسود. ويقول أبو المنصور الحلاج "باستطاعة أي امرء أن يستعيض عن مناسك الحج في أي مكان كان".

ونورد هنا نص رسالة أبو طاهر القرمطي - رئيس القرامطة - إلى الخليفة العباسي المقتدر، رداً على رسالة المقتدر إليه. والذي يوضح - أي أبو طاهر - أسباب دوافع القرامطة في هجومهم على مكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

"من أبي سعيد الجنابي، الداعي إلى تقوى الله، القائم بأمر الله، الآخذ بأثار رسول الله إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس: أما بعد..

"فأما ما ذكرت عن قتل الحجيج وخراب الأمصار وإحراق المساجد فو الله ما فعلت تلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشحن، وإدعى طوائف منهم، وأنهم أبرار ومعاينتي منهم أخلاف الفجار. فحكمت عليهم بحكم الله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". خبرني فيها أيها المحتج والمناظر عنهم، في أي آية من كتاب الله، أو أي خبر عن رسول الله إباحة شرب الخمر أو ضرب الطنبور وعزف القيان ومعانقة الغلمان، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام واحتووها من

وجوه الحرام. وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار. فأي مسجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله وعلى رسول الله بأسانيد من مشايخ فجرة، بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا الجهالة. وأما تخويفك لي بالله وأمرك بمراقبته فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك، أترى إني أجهل الله منك. وصرفك أموال المسلمين للصفاعنة والضراطين ومنعها عن مستحقيها؟

وما ذكرت من أني تسميت بسمة عدوان فليس بأعظم من تسميتك "المقتدر بالله" أمير المؤمنين، أي جيش صدمك اقتدرت عليه، أم أي عدو ساقك فابتدرت إليه. لأنك أمير الفاسقين أولى بك أمير المؤمنين"[1].

هل الحركة القرمطية حركة شعوبية أم أممية؟

يتهم جمهرة من المؤرخين، الحركة القرمطية على أنها حركة شعوبية! جاءت "لتحقيق سدى آمال الفرس"[2] والقضاء على سلطان العرب بسلطان الفرس! ومن أشهر هؤلاء المؤرخين أبو المنصور البغدادي والغزالي وابن جوزي وأخي محسن في العصر الوسيط والدوري وإبراهيم حسن المبارك والخضري في العصر الحديث.

إن الاستمرار في الضرب على هذا الوتر من العصر الوسيط إلى اليوم. يعكس بجلاء مدى الحقد الطبقي عند- هؤلاء المؤرخين- تجاه التجربة القرمطية الثورية، المناوئة إلى مصالحهم الطبقية. فلم يجدوا ثغرة لطعن هذه التجربة الفريدة في التاريخ الإنساني، إلا هذا الإتهام الهزيل والمبطن

---

[1] الحمادي اليماني "كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة"، ص34، وسعيد مسلم "ساحل الذهب الأسود"، ص79.

[2] عبد العزيز الدوري "دراسات في العصور العباسية المتأخرة"، ص163.

للحفاظ على مصالحهم الطبقية، تجاه المواقف والإجراءات الثورية التي طبقها القرامطة في شرقي الجزيرة العربية.

1- عبرت الحركة القرمطية منذ نشأتها عن تحقيق آمال وطموحات الجماهير الفقيرة. فضمت ضمن إطارها معظم المضطهدين من جميع الأمم "القوميات" عرب، أكراد، تركمان، فرس..". ويضيف الغزالي أيضاً "أن العقائد الإسماعيلية تصادف هوى في نفوس العامة" ولم يميز الغزالي بين الهوى وبين المصالح الطبقية المشروعة للجماهير الكادحة التي لمست تعبيرها الحقيقي في فكر وأهداف الحركة القرمطية الثورية.

2- إن الحركة القرمطية التي ظهرت في اليمن على يد القائد علي بن فضل القرمطي، جذبت على جانبها السواد الأعظم من الجماهير وبعض القبائل. وهل يشك أحد في عروبة هؤلاء!.

3- تؤخذ الشعوبية على الحركة القرمطية في بلاد البحرين بشكل خاص والحركة القرمطية بشكل عام على أساس أن مؤسس الجمهورية القرمطية في بلاد البحرين من أصل فارسي "جاء لتحقيق سدى آمال الفرس" ألا وهو أبو سعيد الجنابي.

أ- إن معظم من انتسب للحركة القرمطية في شرقي الجزيرة العربية من الجماهير العربية المسحوقة. وبدو ينتمون إلى قبائل عربية أصيلة مثل قبيلة الأزد، عبد القيس، بني كلاب.

ب- تتجلى النظرة الأممية عند قرامطة الجزيرة العربية، من خلال مواقفهم الثورية الرائعة، ضد دولة "آل بويه" الفارسية التي حكمت العراق من سنة 334هـ- 447هـ. وقد تجلت في حروب طاحنة عديدة بين الطرفين كلها انتصارات للقرامطة، حرب سنة 342هـ 354هـ 363هـ 375هـ 385هـ. فلم يرد من عزم القرامطة في مواصلة نضالهم

الطبقي الضاري ضد دولة آل بويه. على أن هذه الدولة دولة فارسية وهناك قرابة في النسب!

4- محاربة القرامطة أيضاً للدولة الفاطمية التي حكمت المغرب العربي ومصر. انطلقت بدورها من نفس موقفها الطبقي تجاه الدولة العباسية ودولة آل بويه- شرحنا حروبهم العديدة في الفصل الثاني- والتي جسدت بكل وضوح الأمانة الثورية للنظام القرمطي في شرقي الجزيرة العربية.

5- موقف القرامطة الواضح والجلي تجاه الدين والقومية. والتي حفظها هؤلاء المؤرخين عن ظهر قلوبهم. فلم هذا التناقض الشنيع في صفحات كتبهم. والإصرار على شعوبية الحركة القرمطية!؟

الرد على بعض الكتاب:

ينطلق مكسيم رودنسون وكلود كاهن بدورهما- أثناء إشارتهما لقرامطة بلاد البحرين- من أن قرامطة بلاد البحرين لم "يلغوا الرق"![1]. إن هذا الحكم السريع والخاطئ مرده عدم فهم النص الأصلي لعبارة ناصر خسرو التي استنتجا من خلالها هذا الاستنتاج الخاطئ- ونورد هنا النص الحرفي لعبارة ناصر خسرو- والتي فهمها برنارد لويس بشكلها الصحيح- . كما نستشهد أيضاً ببعض الأدلة المادية التي تدحض استنتاجهما هذا.

1- يقول ناصر خسرو "هنالك ثلاثين ألف زنجي يشتغلون في الزراعة لحساب العقدانية"[2] والعقدانية، هذه اسم المجلس التشريعي

---

[1] راجع كتاب مكسيم رودنسون "الإسلام والرأسمالية"، وكلود كاهن "تاريخ الشعوب الإسلامية".

[2] ناصر خسرو "سفر نامة"، ص143.

والتنفيذي والقضائي في البلد، وهو الذي يدير ويسيس أمور البلاد. إذن المجلس العقداني ليس اسم لطبقة "إقطاعية" بل اسم لمجلس الدولة. فهؤلاء العمال الزراعيون يشتغلون في أراضي الدولة- كما ذكر ابن حوقل والدوري ووضحنا ذلك في الفصل الثاني- وليس أرقاء كما توهم الكاتبان. يقول برنارد لويس "وكان المجلس يمتلك ثلاثين ألف عبد كانوا يقومون بأعمال الزراعة"[1].

2- تؤكد إشارة المقريزي على أن تربية الأطفال تتم تحت إشراف الدولة القرمطية في شرقي الجزيرة العربية. وتقوم على أساس طبقي واضح وليس عنصري يقول المقريزي "وتأخذ الصبيان سواء حراً أو أمة أو عبداً من فوق الأربع سنين إلى دور خاصة ويجري عليهم ما يحتاجونه من أكل وشرب..الخ"[2]. هذا الإجراء الثوري والأسلوب العلمي القائم على التربية الثورية. هو عينه الذي اتخذته الثورة البلشفية في أيامها الأولى. عندما طرحت الأكسندا كولونتاي مفوضية الشعب للشؤون الاجتماعية على لينين أخذ الأطفال وتربيتهم تحت إشراف السوفيتيات، تحت إشراف الدولة.

3- بعد فشل ثورة الزنج في البصرة فر كثير من الزنوج إلى بلاد البحرين والكوفة خوفاً من بطش السلطة العباسية وقد التحق معظم هؤلاء الفارين بصفوف الحركة القرمطية وهي في مهدها الأول. كما ذكر ابن الاثير والحسين بن القاسم[3].

---

(1) برنارد لويس "العرب في التاريخ"، ص155.

(2) المقريزي "أتعاظ الحنفا".

(3) يحيى بن القاسم "غاية الأماني في أخبار القطر اليماني"، ص169.

4- يؤكد بندلي جوزي والدوري وغيرهما من الكتاب على أن القرامطة ألغوا الرق كما ألغوا الإقطاع.

5- يورد ناصر خسروا استشهاد آخر - يؤكد على أن هؤلاء عمال وليسوا أرقاء كما يتصور البعض - هو "إذاً أصاب المطحنة أو أحد بيوت المواطنين بأذى، فإن الدولة ترسل عمال الصيانة وتصلح ما خرب. وأن اصلاح مثل هذه الامور وصيانتها على حساب الدولة"[1].

6- كيف يوفق مكسيم وكلود كاهن، بين مجتمع قضى على الإقطاع وألغى الملكية الشخصية وإنشاء مجتمع قائم على الحاجة وبين علاقات عبودية استغلالية تتخلله! إنها لمفارقة عجيبة واستنتاج غريب قائم على عدم فهم الأساس الطبقي للنظام القرمطي وطبيعة التحولات الجذرية التي تمت فيه.

---

[1] ناصر خسرو، المصدر السابق.

المراجع

1. الطبري، تاريخ الأمم والملوك.
2. يوليوس ولهوزن، تاريخ الدولة العربية
3. يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني
4. ناصر خسرو، سفر نامة
5. مكسيم رودنسون، الإسلام والرأسمالية
6. محمد عنان عبد الله، تاريخ الحركات السرية
7. محمد عمارة، مشكلة الحرية عند المعتزلة
8. محمد عبدالفتاح العليان، قرامطة العراق
9. محمد عبد الله عنان، مجلة الكاتب المصرية، نوفمبر1945، "دولة إسلامية شيوعية"
10. محمد عبد الله عنان، تاريخ الجمعيات السرية
11. محمد سعيد مسلم، ساحل الذهب الأسود
12. محمد خضري، محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية
13. محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية
14. كلود كاهن، تاريخ الشعوب الإسلامية
15. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية
16. قدامة بن جعفر الكاتب، الخراج والصنعة
17. عبد القادر الأنصاري، تاريخ الإحساء القديم
18. عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق
19. عارف تامر، القرامطة

20. زهدي جار الله، المعتزلة
21. روم لاندو، العرب والإسلام
22. دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام
23. د. محمود إسماعيل، تاريخ الحركات السرية
24. د. محمد حسين الزبيدي، التنظيمات الإدارية والاجتماعية في الكوفة
25. د. قاسم حسين العزيز ، البابكية
26. د. عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي
27. د. عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة
28. د. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري
29. د. عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين
30. د. عبد الرحمن بدوي، تاريخ الإلحاد في الإسلام
31. د. طيب التزيني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط
32. د. ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية
33. د. حسن إبراهيم حسن، عبيد الله المهدي
34. د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية
35. د. جواد علي، العرب قبل الإسلام
36. د. جمال سرور، نفوذ الفاطميين في الجزيرة العربية
37. د. جمال سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب
38. د. الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة
39. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الفاطميون في مصر
40. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي

41. جمال الدين بن ظافر، أخبار الدول المنقطعة.
42. ثابت بن سنان، أخبار القرامطة.
43. بونارد لويس، العرب في التاريخ
44. بندلي جوزي، تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام
45. برنارد لويس، أصول الإسماعيلية
46. النيسابوري، استتار الإمام
47. النوبختي، فرق الشيعة
48. المقريزي، اتعاظ الحنفا.
49. المسعودي، مروج الذهب
50. المسعودي، التنبيه والإشراق
51. القاضي النعمان، الهمة في اتباع الأئمة
52. القاضي النعمان، افتتاح الدعوة الزاهرة
53. الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة
54. الدكتور فيصل السامر، ثورة الزنج
55. الحمادي اليماني، كشف أسرار الباطنية
56. الحمادي اليماني، أسرار الباطنية وأخبار القرامطة
57. الحركات الفلاحية عبر التاريخ، أشرف طه
58. التنوخي، الفرج بعد الشدة
59. الإمام الغزالي، فضائح الباطنية
60. ادم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري
61. إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا
62. أحمد علبي، ثورة الزنج

63. أبي المحاسن، النجوم الزاهرة
64. أبي إسحاق الاصخري، المسالك والممالك
65. أبو بكر زكريا الرازي، رسائل فلسفية
66. أبو المنصور البغدادي، الفرق بين الفرق
67. أبو الفداء، مختصر أخبار البشر
68. أبو العلاء المعري، اللزوميات
69. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين
70. ابن مسكويه، تجارب الأمم
71. ابن خلكان، وفيات الإعلان
72. ابن خلدون، ديوان العبر
73. ابن حوقل، المسالك والممالك
74. ابن النديم، الفهرست
75. ابن العساكر، تاريخ ابن العساكر
76. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
77. ابن الجوزي، المنتظم
78. ابن الأثير، الكامل في التاريخ

الفهرس